رواية

صابون تازة

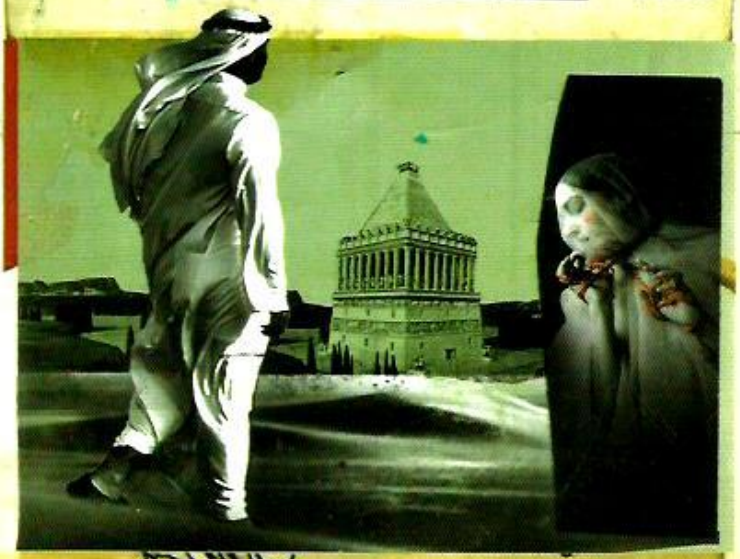

إبراهيم الحجري

... واحد ما
يقول لآخر فين عدي، يبكي ثلجي في الظلمة ويزيد
على ظل وجهو، فراق الأرض صعيب أولدي أنت ما
عرفت والو على هذا الشي، سولني أنا

صابون نازة

دار رواية للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

٢٠١١

صابون تازة

إبراهيم الحجري

الطبعة الأولى ٢٠١١

دار رواية للنشر والتوزيع

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٠١٨١٦١٦٧٩٩

مدير الدار

محمد إبراهيم محروس

رقابة إدارية وفنية

أ. عمرو المنوفي

رقم الإيداع ٢٠١١/١١٦٢٩

ترقيم دولي : ٤-١١-٦٣٩٥-٩٧٧-٩٧٨

©جميع حقوق النشر محفوظة

E-mail: rewaya١٢@hotmail.com

إبراهيم الحجري

صابون نازة

رواية

دار رواية للنشر والتوزيع

أصل الحكاية:

لست أدري لماذا استيقظت في ذهني تلك الحكاية التي قصها علي والدي مثل الخرافة قبل عشرين سنة من وفاته، ولست أدري لماذا أصبحت الآن متيمًا بما يشبه حب الفضول لمعرفة تلك القرية الأسطورية التي كان يحكي لي عنها بحنين، كان يحكي وعيناه تكادان تفيضان بالدموع، وكنتُ أنا -آنذاك- لا أفهم معنى الحنين، ولا أستطيع قراءة ملامح والدي وهو يحكي، فقط كنتُ أظنه يريد تسليتي بتلك الحكايات المذهلة عن أناس عاشوا وماتوا، وعن قرية دمرت عن آخرها ولم يُترك منها سوى الأنقاض، كان أبي أثناء حكيه يوحي بأن ذلك وقع في زمن مضى، وكان هو آنذاك صغير السن، لذلك أسعفته ذاكرته على التقاط التفاصيل الصغيرة جدًا لتلك الأحداث التي وقعت ذات مساء ماطر، وحينما كان الأب السارد يتوغل في الحكاية المستعادة هاته، كان يتنحى عن وجهي جانبًا ويتجه صوب المجمر، ويبدأ يحرك الجمر تحت المقراش ليزيد تأجيج النار تحته، كانت ملامحه تضطرب وكأنما هو في حالة بوح وشكوى، كمن يحس بظلم جسيم لحق به وهو صغير، فكبر معه ذلك الظلم وتحول إلى ما يشبه الفقد. رفع المقراش، الذي كانت سنبلة البخار تتصاعد من فوهة علبوبه*

---

* العلبوب بالدارجة المغربية هو فم المقراش أو البراد أو الإبريق.

وفتح غطاء البراد الألمنيوم البلدي ،ثم أفرغ الماء ببطء ونشوة وعرق دقيق يتفصد من جبينه البرونزي الذي ترتسم فيه خطوط متوازية من التجاعيد، وضع البراد على المجمر الملتهب ثم راح يسخّن يديه المضللتين بالشقوق، قال دون أن ينظر إليّ وكأنما يحكي لقاض رباني يرجو إنصافه، وكنت أحس في قرارة نفسي أنني أصغر بكثير من أن أتبوأ عرش المتلقي لهذه المحكيات القاسية، لم أكن ناضجًا ذلك الوقت لأمتشعر الذي يحكيه والدي عن ذلك الزمن، وكنت ذاك الزمن البارد أرى المحكي ذاك مجرد خرافات نتسلى بها مثل الذي تحكيه لنا الجدات: "يا ولدي كان الوقت واعر، ماهواش بحال هذا الوقت، كل شيء ولا موجود، وتحركت الوقت، هذيك الساعة كان المخزن قليل ومّالين الوقت غالبهم الوقت، كان لّي غلب على خوه يدي ليه رزقو وبلادو وعيالاتو، وما يتساطحوش عليه زوج معزات، كان الزمان اصعيب وما كان لا لباس لا ما يتْكَلّ، كنا نسكنو في النوايل، وكانت الشتا كثيرة والبرد قاسح ولكن كان بنادم صحيح، هذا الزمان كل شيء موجود ولكن بنادم ولا عيّان ما بقات فيه صحة، ها الغطا ها الماكل على الأنواع، ها الدواء، ها الطبا، ها الفرماسينات... وكل شيء الله يرزق السلامة معطوب، معلول، بنادم ديال هذا الوقت ولا بحال الشمع ضغية يذوب، يموت في الشاوطة الأولى، هاذيك الساعة كنا نطحنو الدقيق في الرحى، نهار والعيالات يطحنو الشعير والقمح، كانت كل مّكلنا من الشعير واللبن وحليب البقر والزبدة البلدية، إيه

كانت أيام واعرة ولكن زينة، أيام الحباب والأصحاب والنية، هـذا الزمان بقاو فيه ع الماس، مشاو الرجال، المهم كانت البلاد يا ولدي هانية والسما صافية، كانت الناس قانعة بالذي قسم الله، كان الناس كيعمرو المطامر بالزرع وفي آخر العام كيديرو حفلة بحال موسم ملاي عبد الله درك، يكون فيها الخيل والمغنية والشرفاء والشيخات وعبيدات الرمى وزيد وزيد، كان شيخ القبيلة هو التاكيدة في القبيلة، وكان ليه شان، هو لي يحكم ويفصل، تاحد ما يدير شي حاجة بلا ما يشاورو سوا في الزواج سوا في فرح أو قرح، كانت عدو هبة ربانية لي دعا معاه يسير ليه الله ولي دعا عليه ما يلقاه غير العكس، الله يرزق السلامة، هو لي ينظم الشغل، وكانت مرة، مرة كتكون حرب بين قبيلة وقبيلة، كان حتى واحد من شي قبيلة برانية ما يدوز في قبيلة أخرى حتى يشاور وياخذ الإذن، كانت القبايل كتضارب بالحجر والسيوف، وكان القرطاس قليل، كانو الرمى هوما لي كيعرفوا لهذاك الشيء، كانوا عشرة من قبيلتنا يضربو بالقرطاس القلة عامرة بالماء فوق راس المرأة، كنت وأنا صغير كنسمع وحدين يسميوهم أولاد نعام، كا كانت عندهم قبيلة، كانو سبع خوت، كانوا مجهدين في الرمى، كيغلبوا وحدهم خمسمائة فارس، وقهروا الاستعمار، عيا ما يحاول معاهم وما صور منهم لا صح ولا باطل، وما غلبهم غير بالبيعة والتبركيك، داروا عليهم واحد عساس في قبيلة قريبة منهم، وعس عليهم حتى تم ليهم القرطاس واعلم بهم الفرنسيين، جاو وذبحوهم

واحد بواحد، وقطعوا روسهم وداروهم في الشواريات، أنا عاقل عليهم كانوا يدوزوا علينا بسبعة على خيلهم راكبين، لابسين جلالب بيضاء وفوق روسهم عصابات مشرقية، ما يدويهم حد ما يدويو مع حد، كيدوزو بحال البرق، فمار ذبحوهم بقاو فينا، دمهم كان يقطر في الطريق، وملي قتلوهم جاو لفرانسيس وجمعوا لقبايل لي مجاورة معانا، منهم أولاد ابريك وأولاد اعجيل والبيادرة وأولاد الصحاروي والقروشة والحميدات واولاد حجاج وزيد وزيد، وخطب فيهم واحد الفرانساوي كان حداه واحد يترجم ليه هضرتوا، كنا حنا ما كنفهموهاش، لغتهم معوجة ما كنفهموهاش، كالوا القبائل غادي نديروا عليكم قايد سموه القايد بوشعيب، كان واحد الساقم، طويل ونحيف، والشر بادي على وجهو، عينيه صغارات وزغب وجهو خفيف، واقف بجنبهم وضارب ليهم البرابو والبوجور وكانت معاهم واحد النصرانية لابسة الرومي وراسها عريان دايرة ليه الفريزي، ما كنا نعرفو والو هذيك الساعة على الفرانسيس، كان هذاك المغربي لي كيترجم ليهم يقول بلي هما كيواعدونا يصلحوا ويديرو التاويل ويعاونو الضعافا ويقريو الشباب، كنا احنا هذيك الساعة صغار وكنخافو من القراية، كنعقل ملي كان الشيخ يجي يقلب على الدراري الصغار باش يديوهم بزز للمدرسة وكنا كانتخباو، كان كل شي كيتقرا بالفرنساوية، المهم، يا وليدي بناو واحد الدار فاعلة تاركة آش غدي نقول قصر صافي، أما حنايا هذيك الساعة كانو عدنا غ النوايل

و الخيام وصاوبو ليه الشانطي تا تماي، وفي الأخر هـــددنا هـــذاك المترجم وكالينا: لي ما طاع القائد بوشعيب رحنا غادين نعاقبوه طبقا للقانون لي حطوه هوما، هذا القانون آولدي كيقول: احنـــا نخـــدمو ونحرثو ونزرعو ونحصدو ونجمعو ونعطيو للقايد بوشعيب (الله يحـــرك عظامو في جهنم) النص من الرزق لي كيعطينا الله، ومـــع المـــدة ولا كياخذو كل شي ويخليو لينا ع لي يسر الله، ذاك شي ماكيكدناش تا في الماكلا، ماتو البهايم بالجوع، ما بقاش ما نعلفوهم، ذيك البركة لي كنعطيوهم ولا سي القايد يديها لبهايمو لي ولاو يتعدو بالألوف، واحد العام سمعنا الحرب.الحرب، جا العسكر ديال فرانسا وداو لينا كل شي وخلاونا على الدس، ما تلينا لقاينا لا منبردوا ولا منسخنوا، كاليـــك فرانسا خاصها ما تعطي العسكر وحنا مالنا ومال العـــسكر؟؟ سمينـــا هذاك العام الكحل، بعام الجوع،ذكرنا السمن والعسل، ولينا بحـــال البهايم ناكلو الربيع، يرني والحميضة وكرينبوش. القايد بوشعيب كان ساكن في المدينة وملي يجي نهار الجمعة نوض العافية في البشر. ملـــي يجي كيلقى كدامو شيكايات وكيلقى البركاكة ديالو جامعين ليه الناس لي ماعاجبهم حال، كيتكرفص عليهم ويديرهم في الحبس، العيـــالات الزوينات كان يديهم القايد للعزيب ديالو، شـــي خـــدامات وشـــي مراواتو وشي كيتكرفص عليهم ويردهم لرجالتهم هـــو ولي معـــاه، ولات القبيلة عايشة القهرة والسلام، هاك الساعة ملي عرف القايـــد الناس ولات محتاجة بزاف ولا ياخذ الأرض ويعطيهم الخبز، حتى خلا

ليهم ع الحطات. ومع القهرة والجوع بدا بنادم يرحل، خلاو كل شي ورحلوا بجلودهم عريانين تاواحد ما يقول لاخر فين غادي، يبكي تايعيى في الظلمة ويزيد على ظل وجهو، فراق الأرض صعيب آوليدي أنت ما عرفت والو على هذا الشي، سولني آنا، إيه يا ولدي من المروك كحل الراس، طيح في يد الجنون يرحموك ما يرحمك بنادم، الحاصول وما فيه دار فينا هذا القايد مابغى وكمل علينا المرض، هذا المرض آولدي جاء من بلاد مصر، وهو كيعادي، إلى غير ريحت حذى المريض هزك الماء، كيقتل على نص نهار، المريض يرد الدم ويموت، كانو الناس ولاو كيدفنو الموتى بالعرارم، ينقلوهم على الجمال ويدفنوهم بلا فاتحة، بلا قران، وتا واحد مايوصلهم، آنا كنعقل جاو النصارى دورو العسة على القبيلة، تاحد مايزورها تا حد ما يخرج منها، سمعناهم يقولوا ما عدوا دوا هذا المرض، وسمعناهم يقولوا قبيلتنا غادي تفنى، كنا هذيك الساعة أنا والعربي وعباس صحاب، وكانوا هما أكبر مني شوي، بدينا نفكرو في الهروب باش ماعطا الله، عباس مات ليه باه وأمو والعربي كذلك، وأنا خليت الوليد في الفراش ديال الموت، كنت عارف بلي الوليدة غاديا تبعو، من بعد قالوا لي ماتت هيى وياه في نهار واحد، دفنوه في الصباح ماتت هي في العشية، كانت عندنا طريق وحدة هيا نلصقو في الشاريوات ديال القايد ونهربو معاه المدينة، تخبينا في الظلام تايدوز الكاميو، ودرنا واحد يعس على الكومي باش مايشوفناش خارجين من الحدود لي دارو لينا

مانفوتوهاش، وهكاك كان، ركبنا وتخبينا وسط الحلوف، اصبرنا ليه وهو يبول ويزبل علينا – يا وليدي ريحتو شحال خانزة حول الله حرم علينا ماكلتو، باز للنصارى حتى ياكلوه –، ملي تنصفت الطريق نزل مسيو غابانا وقلب الشاريو لقانا فيه، كان واحد الكحل طويل، سانغالي، بقينا نطلبو ورغبو فيه حتى وصلنا الدار البيضاء، ماكناش نعرفوها، هو لي قالينا راه سميتها كازابلانكا، كنا عارفين بلي أي بلاصا غادين نمشيو ليها غادي تكون أحسن من الموت للي كنا عايشين فيه، تكرفصنا يا ولدي باش وجدنا ليكم هذا القبر (قبر الدنيا)، وباش كبرناكم وقريناكم تا وليتو قد هكا، أنا حلفت باش ما نرجع لهاذيك البلاد وخا عزيزة علي، ولكن كتفكرني في القهرة والخلعة والموت والظلم وبزاف ديال المحاين... الله يرحم لي دفنوا بالقهرة، يعلم الله ديك البلاد كيف ولات دركا، عباس قدر يرجع أما أنا لا، العربي مرض ومات، هذيك قصة أخرى، عباس ملي رجع مبقيتش شفتو، من ذاك العصر، جمع شوي ديال الفلوس وقاليا غادي نمشي، توحشت البلاد، المهم نشري بهذ الفلوس بقيعة ونعيش ما تبقى من الحياة ثم، هذا الجولة عيت منها وهلكتني تبرانيت، تقهرت يا خوي، عذرني إلا خويت كتافك، هذ المدينة بحال البحر ماتعرف ليها لا ساس ولا راس، عشنا فيها ربع قرن وما درينا فيها والو، بلاد السبوعا هذي أما حنا، عايشين عيشة الدبانة في البطانة، احنا مع التراب والأ رض والفلاحة بحال الحوت مع الماء، توحشت راسي في هذه المدينة، غادي نرجع

أخوي، قلا في راسك، تلقاني في البليدة...وبقيت آوليدي بوحدي هنا، بغيت نربي الزريعة وندق الوتاد بعيد على هذيك المصايب إلي كبرت معانا، مانقدرش نعيش في هذيك البلاد بلا ما تفكر الحباب لي مشاو والأرض لي داوها لينا صحا، والقهرة والموت...إخ إخ إخ من بنادم كحل الراس ...واخا هكاك عزيزة عليا البلاد آوليدي، تجري في دمي، ريحتها في نيوفي ليوم لدابا، نموت ومانساهاش[1]"

---

[1]- في الأصل النص كتب بالعربية قبل أن يترجم من طرف المؤلف إلى اللغة العامية المغربية، وهو كالتالي: "كان الوقت صعبا يا ولدي، وليس كما هو الآن، كان الأمن ضعيفًا، وكانت النزعات القبلية واضحة، وكان القوي يأكل الضعيف، وكان الفقر ضاربا بأطنابه على العباد، الجوع والقهر والعري، كنا نسكن أكواخا من التبن، وكانت الأمطار تسقط بغزارة أكثر من اللازم، وكان البرد قارسًا. ومع ذلك كانت بنية الناس قوية وكانوا شديدي التحمل والبأس، عكس ما هو سائد الآن، كل شيء متوفر: الأطباء، العيادات، الصيدليات... ومع ذلك فالناس كلهم مرضى، هزيلون، يشكون الوهن والمرض، ضعيفو التحمل لا يقوون على شيء، آنذاك كنا نطحن الدقيق في الرحى الحجرية، وكنا لا نأكل سوى اللبن والشعير والقمح والزبدة وحليب البقر، كانت معيشتنا قوتنا من

الطبيعة، كانت، يا ولدي أيامنا وعرة، لكنها كانت جميلة، تذكر بالأحباب ومجامعهم والأصحاب وأيامهم، والرجال ومواقفهم، الآن، لم يعد هناك رجال ولا مواقف، ما بقي غير الشطار والمنافقين واللصوص والمحتالين. المهم يا بني كانت القبيلة مطمئنة، وكان السكان مطمئنين، مع بساطة عيشهم، قانعين بعيشتهم المتواضعة، يحرثون الأرض ويملئون مطامرها بالمحاصيل المتنوعة: قمح، شعير، ذرة، فول، حمص. وكان الناس بعد انتهاء جمع المحاصيل، كعادتهم يقيمون وليمة ضخمة تشبه موسم مولاي عبد الله أمغار الآن، تضج ساحة القبيلة بالولائم ورقص المغنين، وركض الخيل، ويحج إلينا من بعيد الشيخات والشرفاء، وعبيدات الرمى وهلم جرا.. وكان أمر القبيلة يسند إلى رجل وقور يدعى "شيخ الرمى"، كانت له مهابة وقداسة لدى أهل القبيلة، هو الذي يستشار في كل أمور القبيلة وقرارات الأسر، ويبث في أمور كثيرة. وكان من العادي أن تنشب حروب صغيرة بين القبائل، وكان لكل قبيلة محيطها وحرمتها الخاصة التي يجب أن لا تنتهك ولا تمس، كانت الحروب تقوم بالعصي والحجارة والسيوف، وكان الرصاص قليلا، ولا يجيد استعمال البنادق سوى قلة محسوبة على أطراف الأصابع، كان يشتهر من قبيلتنا عشرة رماة يصوبون فيصيبون القلة فوق

رأس المرأة وهي على مسافة بعيدة، وكنت وأنا صغير أسمع عن قتل الرجال السبعة، الإخوة الذين قهروا العساكر الفرنسية المحتلة، التي حاولت كثيرا أن تلقي عليهم القبض دون جدوى، وأهدرت الكثير من الدماء، قبل أن يأخذهم المستعمر بالوشاية والتجسس، إذ باغتوهم لما استنفذت ذخيرتهم من الرصاص، فذبحوهم سبعتهم ووضعوا رؤوسهم في شواريات (أكياس من الدوم) وطافوا بهم القبائل المجاورة ودمهم يسقي الأرض المقدسة، لما قتلوهم – قتلوا فينا البطولة- ثار الغضب في نفوسنا، والواقع أنهم كانوا يتخذون في قلوبنا -كأطفال- موقعًا رفيعًا، وإن ظلوا طيلة الوقت بعيدين عنا، وبعد مدة جاء الفرنسيون ومعهم مغربي وبصحبتهم أجنبية، كان واحد منهم يتكلم الفرنسية -لم نكن نفهمها- ويخطب على القبائل التي جمعت عنوة لتتلقى الأوامر، وهددونا جميعا بأن كل من خالف أمر هذا القائد – ذا الأصل المغربي- سيحصل له ما حصل لأولاد نعام السبعة، ووعدونا في نفس الوقت – في حالة التعاون معهم- بأنهم سوف يضمنون لنا حياة أفضل ويزيحون عنا الفقر والجهل والتخلف، وبعد مرور أعوام جهزوا قصرا للقائد بوشعيب وهيئوا له الطرق والسبل للثورة، وسخرونا له خدما، نحرث الأرض ونتعب فيما يؤول إليه كل المحصول، ازداد فقرنا وساءت أحوالنا،

ولم تتحقق من وعود الغزاة سوى خراب الأنفس والجسوم. ومع تفاقم الأحوال وانهزام الحلفاء ومنهم فرنسا أمام جراد هتلر، ازداد جشع المعمرين، أخذوا كل ما نملك من أجل تأمين حاجات الجنود والعساكر، فاستبد الجوع بأهل القبيلة ومات الشيوخ من الأسى وسوء الرعاية، وهب الناس للقائد يمدون له الأرض مقابل الخبز، فأصبح جلهم بلا أرض وما عاد أمامهم سوى أن يبكوا دمًا ويغادروا ليلاً دون ضجيج في ذلة وهوان، وهزم مرض الكوليرا اللعين ما تبقى من رجال القبيلة، كل من مرض به لا يتجاوز نصف نهار، أصبحت القبيلة تودع رجالها بالعشرات يوميًا، وأحس الناس أن القبيلة تؤوب صوب نهايتها، وفكرت أنا وعباس أن نهرب من العدوى، ودبرنا حيلة للخلاص والفرار، اقترحت أن نكمن في طلح القائد ونركب خلسة الشاريو إلى خارج القبيلة، لأن الحصار كان مضروبا على عناصر القبيلة حتى لا تذيع العدوى، وذاك ما كان، اختفينا تحت الخنازير التي كانت تبول علينا وصبرنا لرائحتها الكريهة، كنا نعرف أن أي بلاد نذهب إليها ستكون أحسن من القبر الذي كنا نعيش فيه، رغم أن البلاد عزيزة علينا -يا بني- المهم كدحنا في كازا واشتغلنا بعرق أكتافنا كي نتدبر أمرنا وأمركم فيما بعد، العربي مرض ومات رحمه الله، أما أنا وعباس فجمعنا بعض

كنت أتحاشى النظر لقسمات وجهه أثناء الحكي، فقد كنت عـــاجزا حتى عن بعث روح الطمأنينة في نفسه، كان يحكي ، ولـــست أدري لماذا كان يحكي لي أنا بالضبط هذه التفاصيل، كان يحكـــي بإصـــرار وتذمر وتأثر رغم أنه كان يعلم أنني مجرد طفل صغير لا يفهم

في هذه الأمور، وغير قادر على أن أنتقم له أو أعيد لـــه الاعتبـــار، فأغلب الناس الذين شاهدوا الوقائع ماتوا أو تاهوا أو رحلوا بعيـــدا

المال، فاقترحت على عباس أن نشتري مسكنا ونعيش فيه مثل باقي الناس ونتزوج ونلد ونحيا كما شاء الله، غير أن عباس أصر علـــى العودة، أما أنا فلم أستطع ذلك، قررت أن لا أعود في هـــذا العمـــر لأموت حنقًا بالذكريات السود، ذكرى الأرض والرجال الذين مـــاتوا قهرًا، والأم والأب اللذين تركتهما بين مخالب المـــوت ورحلـــت... و..و.. و . ومع ذلك يا بني تظل الأرض ورائحتهـــا تجـــري فـــي عروقي لن أنساها حتى بعد الموت.

صوب مناطق مجهولة، ولم يعد لهذه الأحداث مهما بلغت مأساويتها، من وجود سوى ذاكرة والدي، كان بإمكان والدي أن يحكي هذه القصة المؤثرة لأخي الأكبر مثلا، فقد كان في سن تسمح له بمناقشة هذه الأمور المستعصية وتمنحه إمكانية التخفيف عنه على الأقل، لكن أخي كان قليل التردد على البيت، كان مشغولاً بالدراسة ومطاردة الفتيات الجميلات والعناية بمظهره وشعره، حتى كنا نشك في رجولته أحيانًا، كان لا يأتي إلى الدار إلا ليأكل ثم ينام، وحينما يأتي، لا يجالسنا، يذهب مباشرة إلى منزله/ غرفته دون أن يلقي التحية، أمي كانت تحفظ طباعه عن ظهر قلب، لذاك، وكما لو كانت تتواطأ معه، كانت تضع في غرفته الطعام والشراب وكل ما يحتاجه حتى لا يثور في وجه الجميع مثل ثور شرس. ربما لهذه الأسباب كان أبي يصر على أن يحكي لي أسطورته مرارًا قبل أن ينام، معتقدًا أنه بفعله ذلك، كما لو كان يحكي مأساة قومه للعالم أجمع، المهم أنني كنت أحس أنه يرتاح مؤقتًا قبل أن تستفيق فيه تفاصيل الضيم من جديد بعد لحظات، أمي المغرقة بمدينيتها كانت تفضل أن لا تشغل بالها بتفاصيل الخرافة هذه، كانت تعتبر هذه الوقائع مجرد هلوسات لن ينفع ذكرها، وكانت دومًا تنهره وتصده عن الحكي، وتقول له: لعلك بدأت تفقد عقلك، علينا أن نحملك إلى بويا عمر أو برشيد لتعالج من لوتات المس، أنت لم تغفل عن حكاية المرض هذه لحظة واحدة وكأنك تحكي لنا عن إرم ذات العماد، كان المسكين يسمع لهذه السخريات بمرارة، وهو يحك شعره

قرب أذنه اليسرى، كان كلما شعر بجرح أو ضيق يفعل ذلك، ويتلفت جهة الباب.في مقهاه الشعبي الصغير بكريان حي المسيرة، الذي يديره الشياظمي البدين بوجمعة، حيث يجالس أصدقاءه كل مساء بعد العودة من المرسى وصلاة المغرب، فيثرثرون ويشربون الشاي بالشيبة، ويدخنون التبغ الرخيص والكيف ويتشقون "النفحة" ويتكلمون عن النساء وعن المغامرات والفروسيات البائدة ويلعبون الكارطة والضامة والرامي. أصدقاء والدي كانوا من جميع الأجيال: شيوخ، شبان، متوسطو الأعمار، لصوص، شحاذون، قطاع الطرق، فقهاء، منافقون... كلهم كانوا يجدون فيه الرجل الذي ينفس عنهم ضيم الأوقات، يحكي لهم النكث ويسرد عليهم قصص ألف ليلة وليلة والأزلية وأوديب وغيرها بطرق مختلفة حفظها عن البهجة وبقشيش أباطرة الحكي الشعبي بساحات الحلقة الشعبية الشهيرة في القريعة وسوق الأربعاء، وتيط مليل والقيسارية والشطيبة وليساسفة رسنطرال، كان يسليهم ويفرج عنهم ويفتي عليهم المشورات ويوزع عليهم الحب والبسمات دون كلل، الذي لا يجد تدخينا يقصده، المغموم يقصده، الحائر يقصده، المذنب يقصده. كلهم كانوا ينادونه عمي الكريش، لقب بهذا اللقب لكونه كان دائما يحمل ريالا كبيرا زرق، ويداعبه بين كفه اليسرى بحيث لا يبرحه، ذاك الريال آنذاك- كان يدعى "القرش" صغر لقبه للتحبيب لكن لست ادري لماذا لم يكن يحكي لهم تفاهاته هذه التي يكسر بها رأسي كلما

جالسته؟ لم يحرمني من أزلياته وحكاياه ونكاته التي يؤنس بها الآخرين؟؟ لقد ظلت تلك الأسئلة تكبر معي وتؤرقني، ومع مرور الوقت وتنامي وعيي بالأشياء والوقائع، بدأت أدرك بعض الإشارات وأتقصى تأويل بعض الأمور، وأنا أكبر كنت أدور تلك الحكاية في دماغي وأحركها يمينًا ويسارًا، وأطبخ بها دماغي لحظات الوحدة، بل فيما بعد أصبحت أتعمد العزلة لأفكر وأدبر، وزاد من حرقة هذه القصة أن آخر كلمة كان يرددها والدي وهو يحتضر هي: "زُرْ كطرينة"، كان يقولها بعسر وهو ينظر إلي ، كأنما يعنيني بالقول. لفظ أنفاسه بين يدي الفقيه "شعبوقة" صديقه، وعيناه تبحثان عني في زحمة المشيعين والزائرين، زهقت روحه وحكايته تؤرقه بالقدر الذي تحفز في رغبة الكشف والاستطلاع والرحيل صوب الأرض التي عشقها ومات وهو يحن إليها بجنون، مات الوالد الشيخ وفي نفسه شيء من "قطرينة"، وضع الصخرة من على ظهره وحملني إياها وأنا مازلت صغيرًا طريًا كعود الزيزفون.

نشوء القضية:

مات والدي، ونبت على قبره كثير من الشوك والزهور، كنت أزوره خلال فترات متقاربة، وكل مرة أجده في حال، مرة مخضرًا، ومرة مصفرًا، ومرة لا لون له، يتغير القبر تبعًا للفصول وتقلبات أحوال الطقس، ولولا أني كنت أحفظه عن ظهر قلب لأشكل علي أمر العثور عليه فيما بعد في مقبرة الشهداء، لقد انضافت قبور كالنمل بالمقبرة، وسقطت على القبور أمطار كثيرة، وهدمت القبور في مجملها – ومن بينها قبر أبي– ولم تعد ملامحها تبرز للعيان، تساقطت جوانبها وغاصت حوافها في الأرض. القبور طبقات، الطبقة البورجوازية الراقية المعزولة في ركن خاص، المزينة بالزخرف والزليج والشواهد المكتوبة بخطوط جميلة، والطبقة المتوسطة وهي قبور مبنية ومحمية بالإسمنت العادي ومكتوبة شهاداتها بشكل بئيس، أما الطبقة الثالثة فهي قبور منكوبة، لا إسمنت، ولا زليج ولا خطوط، مجرد حفرة تغطيها الحجارة والتربة البيضاء، فيما بعد تضيع التربة وتختفي الحجارة ويتلف القبر، ربما يصير مجرد علامة في الذهن، كنت آتي إليه فأسقيه ماء وأجلس على قرب رأس القبر، أتلو آيات وأبكي، أقرأ دعوات وأنا أضع يدي على التراب، ولما أنتهي أطلب من والدي الميت أن يحكي لي حكايته المعهودة التي لكثرة ما ترددت على أسماعي، حفظتها وأحببتها وكبرت معي، فعدت أعتبرها أكثر من حكاية، اعتبرتها مع مرور الوقت سؤالاً

مقلقًا، وبدأت أتلمس خيوطا لهذا السؤال، وغدت فخاخه تستدرجني صوب متاهة حقيقية، وانتابني فضول حقيقي لمعرفة مسارب هذه الحكاية–السؤال، أو على الأقل أزور هذه البلدة المسحوقة، وأنقب في رسومها وأطلالها عما يشي بقوة الوحشية، وما يثبت قسوة الحكاية. لو قدر لي أن أكون قويًا أكثر من اللازم لفعلت ما فعله أبناء القائد عيسى بن عمر حينما حفروا قبره وأعادوه إلى أم الرأس، لنقلت رفات والدي إلى البلدة التي مات وفي نفسه شيء منها، ليتني أستطيع! أخي الأكبر مشغول بنفسه وبهندامه وبتفاهاته الصغيرة، وأمي مشغولة بحزنها ومرضها (السكري)، وأنا ما زلت متعلقًا بسراب الدراسة والبحث عن العمل. غدًا أو بعد غد سأتم أطروحتي، وبعدها أجد عملاً، أي عمل، وأباشر بعد حين هذه المهمة، وأتتبع خيوط الحكاية، الحكاية التي حكاها لي والدي رحمه الله، لا داعي للعجلة –كما قال الأولون– لكل شيء أجله، لما مات أبي ورثني أرقه، فبت أنا أيضا أهذي، وأعيش على كابوس "كطرينة" البلدة الأم التي لم أعشها أنا إلا على سبيل الافتراض والتهم، فيما عاشها والدي كذكرى أليمة، أنا الآن – والعهدة علي– أتوفر على إصرار كبير لمعرفة هذه القرية المهدومة، أريد فحسب أن أستمتع بجرح الذكرى التي ظل يعيش عليها والدي سنين طويلة، وأريد أن أعرف مصير عباس الذي فضل العودة إلى هناك، وأريد أن أصل النسل، الفرع بالأصل، واشتم رائحة الأرض البورية المباركة التي غرست في أبي عشقها الكبير، فظل فلاحًا، حتى وهو في كبريات

المدن، حتى وهو لا يملك شبرًا من الأرض، أبي كان أيام فراغه يذهب خارج المدينة راكبًا دراجته الهوائية، ولما يصل إلى الحقول المحروثة، يجلس القرفصاء ويسجد، ثم يقبل الأرض، وربما يبكي، ويظل مددا من الزمن ممددا على التربة الباردة ينعم برائحتها، ويعود في المساء مبتهجًا، كأنما زار بلدته "كطرينة"، أبي، كان هذا دأبه، محبًا للأرض، بالرغم من المواجع التي تستيقظ فيه لما يذكرها، وبالرغم من الألم الذي يسببه له مجرد ذكرها. "شوف يا ولدي أنا ما كرهت نرجع لبلاد، ولكن أنت عارف، كي غادي يدير الواحد تا ينسى القهرة والمرض والموت لي كان يفرس الأهل والأحباب، والفقر لي كان داير فينا ظفارو ...والله آولدي ما نقدر نبقى قدام هد المصايب ما بقى ليا من العمر..."[٢]

أما أنا فلي القدرة على مجابهة هذه الأمور، أنا سأعود إلى البلد وأشتم تربتها، وربما أشتري بها بقعة وابني بها بيتا لأزورها كلما اشتد بي الحنين الذي ورثني إياه أبي وأنا صغير، ذاكرتي حبلى بصور الموت والفقر والضياع، أستطيع أن أتلمس تفاصيلها ملمحًا ملمحًا وألم شتاتها شذرة شذرة، لم يعد هناك ما أخاف منه: القائد المتغطرس العميل هجر المنطقة خائبًا بعد رحيل المستعمر الغاشم نافضًا يديه من سلطة لا

---

[٢]- لم أكره العودة إلى "كطرينة" يا ولدي، ولكن أنت عارف كيف يمكن للمرء أن ينسى القهر والجوع والمرض والموت الذي أهلك الأهل والأحبة، وينسى الفقر الذي سببه لنا طغيان الغزاة وغطرسة القائد العميل الخائن الجشع... والله يا ولدي ما أقدر أعيش بقية عمري وجهًا لوجه أمام هذه المواجع.

شرعية، هاربًا من جلده بمال مسروق وجاه ذليل، والكوليرا انسحب بعد أن حصد أرواحًا كثيرة، ولا أحد سوف يكتشفني غير عباس، هذا الذي سيكون دليلي في هذه المسارب الوعرة، عباس لم أره قط، ولكني سأبحث عنه، أتمنى أن يكون باقيًا على قيد الحياة، وأن لا تكون الشيخوخة قد دمرت ذاكرته، أنا أعرف بالضبط المكان الذي توجد فيه "كطرينة" العجيبة، أعرف أنها قريبة من الجديدة، وأنها تندرج ضمن دائرة أولاد فرج الهلالي، قريبًا من زوايا بن حسين وأبي يعزي بنور، ويجري غير بعيد منها وادي أم الربيع. المسافة غير بعيدة، لكن ينقصني المال وسيارة ومزاج صاف، أبي بعد أن أصر على البقاء بالدار البيضاء، اشترى بما يملك من مال كوخين قصديريين بكريان سنطرال، وتزوج أمي "الزاهية" الفتاة البربرية التي تنحدر جذورها من الريف، كانت خادمة لدى عائلة ثرية تقطن بالحزام الكبير، رآها أول مرة بسوق السلام وهي تقتني الخضر، فتبادلا نظرات الإعجاب، ودخلت قلبه من أول وهلة، تلك النظرة هي التي سحبت حيرته بين البقاء والعودة، وهي التي جعلته يحسم أمر حكايته، وهي التي جعلت عباس يعود دون صديقه، ويفقده إلى الأبد، تلك النظرة المحفوفة ببسمة من نوع خاص، من النوع الذي لا يتكرر، المرأة لا تطلق تلك النظرة ولا تبصم تلك البسمة إلا إذا صادفت نظيرها، الشخص الذي تحس أنه قدرها الذي لا فكاك منه، باختصار وعكة الحب التي ألمت بأبي هي التي صنعت حكايته بهذه الكازابلانكا، وهي التي فرقت رفيقي رحلة

الهروب من الموت، أبي كان يقول إن عباس رجل طيب، صديق لا يجود به زمان، صديق لا تكرره الصدف، صداقة ثلاثين سنة، ليست سهلة، ليس سهلاً أن أنسى عباسا التوأم والأخ والصديق، كان يقول، أتمنى أن يتزوج عباس ويسعد في آخر أيامه بأولاد وبنات، لقد شقي المسكين في صغره، وكتب بعرقه ودمه سيرة حافلة من المحن والبصمات.

وأنا أقول الآن بعد وفاة والدي بعقد من الزمن، آمل أن ألقى عباسا، عباس الذي أحببته من خلال حكايات والدي عنه ومن خلال حب والدي له، أتمنى أن ألقى عباسا دليلي إلى متاهة "كطرينا" المغتالة، وأن أستمتع بطرائفه القديمة، وأن أعرف أكثر عن أبي من خلاله، أبي الذي نفهمه كما يحب، أبي التجربة التي لم أستفد منها، هو كان يخجل أن يكشف لنا قناعاته، ويظهر لنا سيرته، التي كان يحكي منها بعض الشذرات لزملائه في المقهى الشعبي ويسرد بعض النتف من ذكرياته لمسامريه في ليالي الشتاء الباردة. أبي الطينة اللا مدركة في هذا الزمن (مشاو الناس وبقاو الماس) كما كانت تقول الشيخة فاطنة بنت الحسين وهي ترثي زمان والدي وجيله، أبي يعرف فاطنة هاته وجالسها حسب ما روى لأنها تنحدر من التربة التي أفرزته هو أيضا، وتفرج على لوحاتها الشعبية مباشرة في أعراس الدواوير، وهي، آنذاك الشابة القوية المبتدئة الباحثة عن وهج مستحيل، أنا أحب الراي وأغاني الجاز وأكره الشعبي، لكن فاطنة هذه أحببتها من خلال أبي، هو الذي نبهني

إلى ما يستضمره هذا الصوت من عبقرية، وما يتضمنه كلامها الفطري التلقائي من معان ودلالات عميقة، أبي الذي لم يكن يخاطبنا سوى بالصمت، ليس هناك من يعرف أسراره إلا عباس، فعباس هذا، إن وجدته سيكون مفتاحًا للحكاية التي أرقت أبي طوال حياته، وربما في ما بعد موته، طعم آخر وألوان أخرى من الإثارة، عباس الذي ذكرناه هو مفتاح الكتر الذي سيفك اللغز، لغز الحكاية، عباس، إن وجدناه معًا، سيشخص لنا فرادة "كرطينة" التي لم يخلق مثلها في البلاد، عاشت وحيدة وماتت وحيدة، ولم تعد تجد لها من رمس سوى في ذاكرتي وذاكرة عباس!! علي أن أجد عباس هذا كي تستمر حكاية "كطرينة" فمازلت أحتفظ ببعض القرائن والمؤشرات التي تدلني إليه، سيدي مسعود بن حسين، أولاد فرج، الجديدة، القائد بوشعيب، بن امعاشو، قلعة بولعوان، سيدي بهاليل، علي الآن ألا أسبق الأحداث، أعدكم أن أجد عملاً أولاً، ثم بعد ذلك أرحل في هذه الحكاية المغربة...لكن تذكروا: العمل أولا بما يتطلبه من دق الأبواب بإصرار، وولوج للجمعيات، جمعية المعطلين، جمعية المظلومين، جمعية المحرومين، جمعية الحارقين والمحروقين، جمعية الموتى والأحياء، وغيرها من الجمعيات التي يزخر بها واقعنا، ولا تعولوا كثيرًا على هذه الحكاية، ضعوا قلوبكم في ثلاجاتكم وناموا، ولما ينجح مشروعي السردي أنبهكم لنتم معا حكاية أم الرأس، أو حكاية عباس الذي بلا رأس، فقد لا أجد العمل، ولو أنني مطالب الآن بأن أعمل أي عمل بغض النظر عن الدبلوم

الذي أمتلك والمستوى الذي أتوفر عليه، الوقت لا يرحم وعباس قد يرحل إلى العالم الآخر في أي وقت، فيفشل البرنامج، لذا أرجوكم ساعدوني على إيجاد عمل لنتم حكايتنا هذه التي ابتدأناها معا، من أجل أبي، ومن أجل عباس، ومن أجل "كطرينة"! حتى لا أضطر إلى الاعتصام مع منخرطي الجمعيات أمام البرلمان، وحتى لا أضطر إلى الإضراب عن الطعام، وليكن في علمكم أنني ضعيف ولا أحتمل هذا النوع من التصعيد، فعودي نحيف ومعدتي مريضة ويرهقني السكري ووجع الدماغ وحساسيات أخرى، وقد تشرد ضربة من هراوة بوليسي حانق لتصيب رأسي فأسقط دون حراك، فمن يكون آنذاك حريًا بمتابعة هذه الحكاية الغريبة. لذي الأشياء كلها أرجوكم ساعدوني على إيجاد عمل، أي عمل، يضمن لي مرتبه البحث عن سر أم الرأس "كطرينة" غدا تجدون إعلاني في الجرائد الوطنية.

الرجل البلاستيكي:

كان أخي من فصيلة "بقر علال"، لا يستطيع أن يحرك الدجاجة عن بيضها، لا قدرة له على طرح السؤال، كان تفكيره يصيبني بالإسهال، وكانت عينا أمي هما المرآتين اللتين يلامس من خلالهما العالم الذي يعيش فيه، وكان يؤمن بفكرة أمي بكون أبي مجرد ممسوس، مخبول، يهرطق طيلة الوقت بسخافات سمجة، لذا فقد تولدت لديه منذ الصغر كراهة والدي وأفكاره، وتنامت لديه أنوثة مفرطة أذكتها وصاية أمي، فكان شبيها بالمرأة في كل شيء، كان شديد الإعجاب بنفسه، كثير العناية بمظاهره الخارجية، وكان يكلف والدتي، بعد وفاة أبي، مصاريف زائدة، بل كان يقتسم معها أحيانا أشياءها الخاصة: الدهون، العطر...وكان يجالسها أثناء قدوم زائرات، كان يغريه مجلس النساء، ومع مرور الوقت أصبح ملازمًا لهن، وكأننا أليفًا لديهن، وأصبحت أشك فيما بعد أنه ما يزال يمتلك شيئًا من الرجولة، ولعل أمي باتت تبحث له عن عريس ما، المهم لا علينا، لم يكن أخي يفكر في شيء من هذه الحكاية، ربما أنتم خير منه لأنكم مصممون على الذهاب معي إلى نهايتها، أما هو فيعتبر نفسه لا ناقة له ولا جمل في هذه الهلوسات المخبولة، (ما علينا). المهم انساق خلف طباعه السيئة تحفزه في ذلك أخلاط ونزوعات أنثوية مرضية- شافانا الله وإياكم -، كان كل مرة يصحب معه فتيات كثيرات إلى المنزل ويطلب من أمي أن تصنع له

الشاي احتفاء بالضيوف، وكنت أقول في نفسي (الله يرحم لقبر وما خلا)، وكنت إذا ما ناقشته يقول لي أنت معقد ومشكلتك عويصة ولا يجب عليك أن تفرغ علي أمراضك النفسية، فتناقش كثيرًا وينتهي الجدل بمعركة تتدخل أمي لتحلها.

كان أخي "المثقف" يحشر نفسه وسط النساء حتى نسى من فرط ما يفعل أنه رجل، لهذا كنت أتذمر من مشهده الرجولي هذا، وأتمنى لو يكون ذكرًا، يتصرف بما يصون له فحولته بين ذويه وأقرانه الذين كانوا يشكون في أمره، وكل ما مر بينهم تغامزوا وتهامسوا، وكم مرة استبكت في باب الجامعة مع طلاب وقحين أخذوا يسخرون من أخي أمامي، آخرهم الطالب الأسمر الذي قال لي بسخرية مغلفة بالدعابة:

– هاهي أختك الجميلة تمر، أرى أن وردها تفتحت ويجب أن تختار لها عروسا!.

فلم أشعر إلا وأنا أصفعه على وجهه، فسقط وانهلت عليه ضربًا حتى كدت أقتله لولا تدخل الطلبة.

أخي لم يكن يحس بهذا، ولم يكن إطلاقا، يوليه أية عناية، وحينما أحدثه ينهرني ويقول لي:

– لا تدافع عن كرامتي، لست في حاجة إلى ذلك، أنا عاقل وأفعل ما أريد وأدري نتائج عملي وأتحمل مسؤولياته، فشكرا لك.

حلمت أحيانا أنني أقتله وأتخلص منه، وفي المنام ارتحت وقلت الحمد لله، لم أرتكب جرمًا، فالدين نفسه يقر بقتل من لا غيرة له، وأخي لا

غيرة له على كرامته وكرامتنا فبالأحرى أن تكون له غيرة على نسائه وأولاده!.

أخي كان يدرس الإنجليزية، ويحب لندن والضباب ويتابع القنوات والجرائد البريطانية، ويضع المظلة في صيف المغرب حينما تسقط أمطار مفاجئة في لندن، أخي العجيب هذا يتخيل نفسه "لينيكر" ويعتبر" الهوليكتر" أرقى الطرق الصوفية.

أرخى أخي الهوليكانزي شعره على شاكلة "شيبو" وكحل عينيه، وفيما بعد غير العدسة، لتصبح عيناه زرقاوتين على شاكلة عيني الزيتون، وأدمن صالة الألعاب ليتمرن على مهارات البالي، وعكف على التمرن على رياضة الأيروبيك لتصبح له إمكانيات الراقصات الإيطاليات الله اتي يلعبن مع كاظم الساهر في فيديو كليب "قولي أحبك"، أمي هي الأخرى فطنت لمغبة دلالها له، فقد أصبح يكلفها شطرًا غليظًا من ميزانية معاشنا التي تقتصر على ما خلفه والدي من نفقة التقاعد بعد موته، ومن بعض ما تجنيه الوالدة من عملها في الخياطة الحرة، فقلصت من عنايتها به، وأصبحت أسمع جدالهما الصاخب من بيتي القريب من الباب، آنذاك كنت منشغلاً بقراءة رواية "لازاريو دي ثورميس التي كتبها مؤلف مجهول. وأسمع أخي الهوليكتري بلغته الإنجليزية الركيكة وصوته المتأنث يصرخ في وجه أمه ويضرب كتبه على الحائط متأففًا من تقشف أمي في العناية بأموره الزائدة، لو كان أخي يفكر جيدًا لنفض أنوثته في أول سطل للقمامة

يصادفه، ولرمي شعره وخبله ويفعل مثلما فعل لاتاريودي تورميس الصغير لما ودع أمه وخرج إلى الحياة وحيدًا؛ ليصارع أهوالها عوض أن يظل متعلقا بتلابيب امرأة عاجزة. لست أدري من أين ورث أخي هذه الخصال السيئة، أبي كان يتضجر من طبيعة تعاملي معه، وكان دائما يقول لها إنك تفسدين الابن، ما هكذا يتربى الرجال! لكنها كانت دائما تقول له أنت فقط فظ وقاس ولا تريد أن تتخلص من بداوتك القذرة، وينشب بينهما شجار! لا يفك إلا بقدوم الجيران. هاهي أمي تجني ثمار عنادها وعصيانها وإفسادها للولد! المهم أن الولد الغض ذا لم يكن مؤهلا ليساعدني على إيجاد "كطرينة"، كان هشًا وكانت أفكاره فاسدة، لذلك لن أعتمد عليه ولا على أمه، سألبي رغبتك يا أبي الغائب! فاطمئن.

في ضيافة البرنامج الحكومي

أول مشكلة اصطدمت بها بعد حصولي على الدبلوم المهني، هي إمكانية الحصول على عمل يضمن مصاريف الوقت. بدأت أبحث في الشركات العمومية والخاصة بشراسة وعناد، لكن مع المدة تسلل الملل إلى نفسي، واستشرى التعب في أعصابي وأنهد بصيص الأمل، فقررت بعد تردد، بفضل إلحاح بعض الزملاء، الالتحاق بجمعية المعطلين، وهذه قصة وحدها تحتاج إلى رواية خاصة، المهم أنني انخرطت ظانًا أن شهادتي العليا دون شك ستنتزع منصب شغل في دولة الحق والقانون، وأن الانفتاح الحكومي على تجربة التناوب، والشراكة التي أبرمها مع جمعيات حقوقية تشتغل في المجتمع المدني سيفتحان آفاقا رحبة أمام الساكنة، غير أن السيناريوهات التي حدثت لنا كادت تنسينا أننا – معشر المعطلين– ننتمي إلى فصيلة البشر، وأن الطريقة التي تعامل بها معنا المسؤولون شككتنا في كونهم من طينة من يمتلك الرحمة! فقد حشرونا في ركن مسدود حتى لا نختلط بعامة الناس، ولما لم تنفع معنا المناورة، وعرف محاورونا المتعددون أننا لا نروم غير الشغل، هاجمونا في البداية بصنابير الماء؛ كي يسكتوا أصواتنا التي تلوث المدنية على حد قولهم وتفسد عليهم اجتماعاتهم، وفي الأخير لما لم ننخرط في سحرهم كالوا مثل البغال والحمير وأشبعونا سياطا وهراوات ورضوضا وجروحا مثلى كجزاء على اجتهاد التحصيل والكفاح

طيلة أرداح من الدهر وها فضل من يفني زهرة عمره! كم أحتاج إلى أن أبكي وحيدًا على ضفة أي نهر قاس، آه، خصوصًا لما أتذكر آثار الضرب على الظهر والفخذين ومستويات كبرى من الوجه والرأس. حملت مع المحمولين في سيارات الإسعاف مغمى علينا إلى مستشفيات الدولة البئيسة التي من دخلها يكون حظه وافرًا في سلك طريق اللا عودة، يستحيل وأنت تحس مثلي بهذه الآلام وتتذكر طعمها، أن تلذ لك أية حياة بعدها مهما كانت مرفهة! وحينما استفقت من الغيبوبة وجدت نفسي مشوهًا من كثرة اللطم والصفع وضرب العصي البوليسية، وازدادت معاناتي بعد أن علمت أن العنف الذي اجتاحنا قد خلف ضحايا وقتلى، وأننا سنحاكم تبعًا للقانون بتهمة اجتياح مكان حكومي وإزعاج موظفين أثناء قيامهم بمهامهم، ومواجهة رجال الأمن والتحريض على الشغب داخل أفضية عمومية ضاجة بالسكان! كتب الصحافيون ونشروا، واشتد الهلع بدوينا، وقرأت نفوسهم اللطيف، وانقسمت أرواحهم بين حاج إلى المستشفيات وحاج إلى المحاكم ومخافر الشرطة! ولأن الأمر حصل قريبًا من الوزارات، فقد قدم كل الوزراء تصريحات حول الموضوع بكونه تطاولاً على أصحاب السيادة وخرق للقانون العام واستهتار برموز الدولة، وأكثر من هذا تسول، لأن الدولة لا تمنح الشغل لعباد الله، من أراد أن يعمل فعليه أن يتجرد من ثيابه ويشمر على سواعده ويقصد "الموقف"، وعرضت شاشات القنوات الوطنية التلفزية تصريحات أكثر من مرة، والهدف

منها الوعيد والتهديد حتى لا تكرر مثل هذه الأحداث، هؤلاء الذين غالبًا ما تنسيهم التخمة آدميتهم، يعتبروننا مجرد أرقام بشعة تلوث صورة الوطن لدى الآخر! لذلك فلا جرم إن رمينا في مزابل القمامات الكبرى وردم علينا التراب وأقبرنا في سلة النسيان الأبدية، طز علينا وعلى شواهدنا وعلى قارورات العطر الجميلة التي نخبئها في جيوب قلوبنا الرهيفة، وطز على دمائنا الشريفة التي هذبتها المدارس والطرقات الكفيفة والجوع والعطش والحرمان، وطز على كل ثقافة نحملها ظانين أننا نحمل مشعل الحضارة والرفاهة. هؤلاء يقولون إن الوطن لا حاجة له بنا ولو اقتدنا جميعا إلى الجحيم، يكفيه هؤلاء الذين ينهشون عظامه ويسوسون أحصنته الجميلة صوب الخراب، يكفيه هؤلاء الجياع الآبدون الذين لا تشبعهم حتى بحار العالم كله، تكفيه بطونهم الجشعة "قرب السوء"؛ كي يموت بطيئًا بين أظافرهم الدموية الشرسة. أخرجنا من المستشفيات وسقنا جماعيا إلى مخافر البوليس، وحوكمنا في المحاكم بعدما حررت لنا محاضر مزورة، ثم أطلقوا سراحنا عملا بالمقولة إن الوطن غفور رحيم. وبعد أن خرجت من هذه المتاهة وجدتني أدخل متاهة أعظم بؤسًا وأشد وطئًا، إذ وجدت أمامي أما شاحبة غضوبة، وأخًا متشف، وجيرانا ناصحين مستغربين (ما كان أبوك متمردًا ولا كانت أمك ثائرة).

خرجت آنئذ إلى سوق البشرية مدجنا مثل ديك رومي، لا أقوى على الصراخ من شدة الانهيار، اشتغلت نادلاً في إحدى المقاهي، وبالموازاة

بعت الديطاي بالتقسيط للزبائن والرواد، ثم بعد ذلك عملت حارسًا للسيارات، واشتغلت بعد أن طردت من هذا العمل من طرف صاحب المحطة البترينية، بائعًا متجولاً للهندي والتين بأنواعه، ثم بعدها عملت في إحدى المتاجر الممتازة، وهكذا دواليك إلى أن حل النصيب واشتغلت أستاذًا جامعيًا في ظهر المهراز بفاس لمادة علم الاجتماع!

سيكولوجيا الخارج من أعضائه إلى المجتمع المدني!

ليس من السهل أن تعيش في بلد تحس بأن حقك فيه مهدور، وأنك لا تزن فيه قدر برغوثة، وأن أهله يكنون لك الكره، وأن الحظ يناصبك فيه العداء، كل العداء! تمامًا هذا ما كان يحتدم بداخل أعماقي من أفكار وهلاوس، وفكرت مع نفسي وقلت: إن كثيرًا من هؤلاء المجانين الذين يرموهم في مزابل المارستانات ومحجات الحمقى، قد يكونون من أنجب أبناء هذا الوطن، ومن أحسن خدامه. إلا أن هناك من لا يريد أن يخدم الوطن ويظل على حاله مثل دار لقمان، لذلك تكثر خلوات الصلحاء التي تحولت من أمكنة مقدسة للعبادة إلى أماكن لرمي القمامات البشرية، يحبس فيها من أزهقت عقولهم كرهًا وقسرًا. أنا أعرف العديد من الحماق، كنا نعطيهم تمارين رياضية صعبة، ويحلونها بسهولة على الأرض المبللة، وبعضهم يتكلم الإنجليزية والفرنسية ببراعة الجنون، والبعض الآخر منهم يبدو أنه تمرس على السياسة والنضال، ويعرف الكثير عن التاريخ الإنساني والفني والأدبي، هكذا كان أحمد النفرة، من داخل خلوته ببويا عمر يغني عبد الحليم وأسمهان ويتحدث عن عبد الناصر والهجوم الثلاثي، ويلحن أغاني الشيخ إمام بصوت باك، ويصدح بصوته العذب الشجي بقصائد نزار الأولى وقصائد درويش ومطران والسياب والبياتي، والكثير مما لم نكن نفهمه ولا يفهمه الذين رموه في الخلوة/ السجن. أذكر أن أهله هم الآخرون أرادوا أن يرتاحوا من فظائعه؛ فتركوه هناك ورحلوا إلى انشغالاتهم

الخاصة، وعندما يزورونه لا يأتون محملين بالهدايا والورد وبيرة الهينكين التي يعشقها أحمد، بل يأتون فقط ليروا هل الحفيظ العلمي يقوم بواجبه في تجويع أحمد/ الجني وتعذيبه ليفر بجلده، دون أن يعلموا أنهم إنما سيرسلون، بفعلهم ذاك، فلذة كبدهم إلى العالم الآخر قهرًا. تصوروا شابًا مثل أحمد من أسرة ثرية عهد النوم على الأسرة والبلاطات المزركشة والفيلات الفاخرة في أرقى شوارع الرباط وفاس، يتحول، الآن، بين عشية وضحاها، إلى سجن دون أن يمارس ما يجعله خارج القانون، وليس أي سجن، خلوة، كهف قديم، يحكى أن السيد مسعود بن الحسين، الولي الصالح المتصوف الذي قهر جيوش آخر سلاطين السعديين، كان يقيم فيها شعائره التعبدية، لا ماء، ولا ضوء، ولا غطاء، ولا ابتسامة، ولا حنو، كل ما هنالك الجوع والقهر، والرائحة العطنة التي تصدر عن فضلات أحمد ونفاياته، حيث يضطر لقضاء حاجته هناك. لم يكن يأكل إلا من ما يلقيه له الزوار في غفلة من الحراس، وحينما كان يصل لحظة هيجانه اليومي يدخل فترة سعار، يرغي ويزبد ويسب الملأ، ويلقي على الزوار برازه العطن، ويكشف لهم عوراته.أحيانًا يدخل فترات تأمل طويلة ولا يرفع رأسه لأحد مهما كان. وكان الناس يتداولون بأن سبب جنون أحمد:

١- خيانة حبيبته له، بعد أن اكتشف خداعها وعلاقتها الغرامية مع مهاجر مغربي إلى الديار الإيطالية.

٢- حسد أصدقائه له على تميزه الدراسي وتفوقه فدسوا له مادة أو نبتة (شدق الجمل) الخطيرة في كأس قهوة.

٣- تناول مادة الحشيش بنسبة كبيرة، إلى درجة أن الدماغ أتلف نظرا للكمية الهائلة المخدرة التي تسربت للأنسجة الدماغية.

كل ذلك مجرد تكهنات، لكن السبب الأصلي والحقيقي ظل كامنًا في صدر أحمد وغيره من الحماق، ومن يطلق مثل هذه التكهنات إنما يأتي ليتفرج على عورات الناس تضامنًا وتشفيًا. الواقع المر هو أن كل شيء في هذا المجتمع المتخلف، المنحل، يهيئ الإنسان ليكون أحمق مجنونًا، كل شيء يمكن أن تقاومه إلا الرغبة في التنصل من العقل في هذا البلد: فقر مدقع، عطالة أبدية، جهل وأمية، عهارة وتفسخ، إرهاب متعدد...أينما وليت وجهك لا تجد أمامك سوى الجدران الصدئة التي تخرب العقل وتهدم الحواس...في هذه البلدة السعيدة ما أكثر المجانين! تراهم في كل الأماكن الأزقة، الأضرحة، الأسواق. وحتى الذين تعتقد أنهم أصحاء لا يربطهم بواقعهم سوى لحظات قصيرة، إذ سرعان ما يهربون بخيالهم الجامح صوب عوالم يشيدونها خارج منطق العقل ليستطيعوا الاستمرار، ذاك ما كان يحدث لي تماما، كان بالإمكان أن يحدث لي ما حدث لأحمد وعلال اللامبة وبلي بولكلاب وموح السكران ورشيد المهبول وحسن بيخا وبارك ولد الشهية وغيرهم. كنت أحس أني قريب منهم جدا، لذلك كنت في كثير من الفرص التي تتاح لي أحن على هؤلاء وأحادثهم وأحس أني

بالنسبة إليهم مألوفًا، لأني كنت أقرأ أفكارهم المعكوسة بفوضى خاصة، ومع مرور الوقت أصبحت أدرك منطق لغتهم الصعب.

ووجدت نفسي، في الأخير، آدمي المجانين: أزور بويا عمر، سيدي مسعود بن احساين، بويا رحال، مارستان برشيد، مولاي بوشعيب السارية، مولاي عبد الله أمغار كما أني أدمنت قراءة كتب الشعوذة وصرع الجن وحل المعقود من قبيل الصارم البتار والسحر الأحمر وغيرها كثير. الجنون عالم خارق. الجنون حياة. الجنون انتقام. الجنون إفراط في السكر الجنون توحد في عالم الغيب. الجنون تنصل من حدود العقل العاجز الجنون تمرد على قوانين عالم مقيت. هو ذا الجنون كما أفهمه، لو شكل المجانين حزبًا لحكموا العالم! فكل من عجز عن التغيير ولم يعد يطيق عالمه. يلوذ بطل الخيال ضدا على سخافة القيم المسكوكة. يقول لنا المجانين عقب حمقهم: لا علاقة لنا بكم أيها العقلاء، لكم منطقكم ولنا منطقنا، فإلى الجحيم أنتم وقيمكم: أحمد النفرة كان ينتظر حتى تطل عليه شلة من الفتيات فيخرج جهازه التناسلي ويمارس العادة السرية حد الاستمناء، فتطلق الفتيات صرخة غنج مصحوبة بضحك ماجن واحمرار في الوجوه! وبعضهن لا تجد حرجا في متابعة المشهد إلى النهاية قائلة بصوت مسموع: الله يستر! الله يستر على القائل أم على المقول له أم عليهما معا.

أن تعيش مجنونا خيرا – فكرت– خير من أن تموت بالفقصة وأنت تلمح الظلم عاريًا يمشي بين الناس دون أن تستطيع أن تردعه، ودون

أن تستطيع معه صبرًا، فمع الجنون على – الأقل– لن يكون لـــديك وقت لتفكر في تلك الأشياء، ستكون خارج التغطية، خارج العقـــل، خارج الذات. ستكون منشغلاً بجنتك الخاصة التي يـــصنعها وهمـــك الرائع: ما أروع الوهم! (جرب مرة لتكشف هذا العالم الجميل، وسل المجرب لا تسأل الطبيب!) ستضرب أخماسا في أسداس وتتـــرك عـــالم القيم الفاسدة في غيه يهمع: بحار من الدم وأهرام من الجماجم البالية، وقيامة من الناس يسقون جيوب الفساق بعرقهم الغزير، ويكدون من أجل تضخيم ثروتهم (أجري يا التاعس بسعد الناعس). وسأسوق لك هنا حوارا أجريته شخصيا – أنا الراوي– مع أحد المجانين الذي كانت لي معهم علاقة حميمية:

إيوا آش اخبارك آ سطوف؟؟

شفتي الشيطان البارح كان كيضرب الكمنجة في الحوش وعباد الله ترقص وتغني.

وصف ليا الشيطان؟

عندك شي درهم؟

آش غادي تدير بها آسطوف؟

اعطيني درهم!

قول ليا آش غادي تدير بها؟

أنت ما قاريش آصحبي، اعطيني درهم!! أنا عندي شجرة كتبان ليك، غادي نطلع فيها ونغبر على البشر

نطير، نطير، نطير بحال بلارج! اعطيني درهما خليني نطير!.

ولا يمكن لمن يزور سيدي مسعود بن احساين أن ينسى المجنونة بهيجة والمجنون "الميثيل" اللذين يمارسان الجنس أمام الملأ، بطريقة حيوانية، غير عابئين بحلقة الناس التي تحوطهم، والحجارة التي تنصب عليهم كوابل المطر، بهيجة المهووسة بالجنس تصيح في وجوه المارة أبدا: "اعطيني شهيوة" وهي تحك فرجها العاري، وكان الكثير من الأصحاء عقليًا وبدنيًا، المكبوتون جنسيًا يختلون بها في الظلام، ويستدرجونها خلف الأسوار وداخل الأحواش الخالية؛ ليمارسوا عليها الجنس بطرق شاذة وحشية. بهيجة فيما بعد، امتلأ بطنها وأثمرت الشهوة التي تطلبها علنا ممن يمر بجانبها، ولم يعلم أحد من أي ماء فائض جاء الحمل. أمن صلب "الميثيل" المتوحش أم من صلب الأصحاء الأقوياء المكبوتين.

عشت تجربة الخبل عبر الوهم. تخيلت نفسي مهبولاً وصرت رحالة أجوب أرض الوطن راجلا بحثا عن ملاذ وهمي، عاشرت المجانين واستمتعت بعوالمهم الغريبة، وبحثت عنهم في كل الأضرحة والمزارات، هل كنت فعلا أحمق، لا أدري!! المهم أن هذه الفترة منحتني تجربة قوية على الصمود في وجه الرياح العاتية، تجربة كانت متنفسًا حقيقيًا لمعاناتي الداخلية طيلة سنين.تجربة متوهمة جعلتني أتحاشى جنونًا حقيقيًا وشيكًا، بعد هذه التجربة، عدت قويًا، بعد أن تخلصت من هشاشتي، لأواجه العالم المقيت.

لا تقلقوا! لم أنس البرنامج السردي الأساسي، ولم أنس "كطرينة."، سأعود إليها بشغف مثل الذي حمله والدي معه إلى العالم الآخر.

إيروتيكا الوحش!

تفاقم أمر الأخ الأكبر لربيع ولد القريش، وبدأت أصابع الاتهام تشير إليه بممارسة الشذوذ الجنسي مع أبناء الأسر الكبرى، كما أصبح يتناول جميع أصناف المخدرات، خاصة منها الفنيد والغبرة والمعجون. ولوحظ تردد شبان غريبي الشكل على منزله، يرتدون لباسًا يبرز أعضاءهم الحساسة، ويكثرون من الدهون والماكياج اللذين لا يليقان بذكور، واشتكت أمه من كونه يخرج في وقت العشاء ولا يعود إلا في وقت متأخر من الليل خاصة بعد ابتعاد أخيه ربيع عن المنزل، وإقامته بمناطق متعددة منها فاس والرباط. ولما كان يعود إلى البيت غالبًا ما لا يلقاه بسبب غيابه المتكرر وانشغاله بأمور جسده ونزواته وتركه للدراسة وما يأتي منها.

وقد خرج في هذا الزمن الأسود طاعون الشذوذ أكثر من أي فترة مضت، وبرز في الأفق جيل جديد من الشبان عشقوا النسوية وعبدوها فتمثلوا للقوم بشرًا آخر، وبدل أن يجردوا فحولتهم لملء ثغرة الأنثى، تأنثوا ومنحوا للذكور مثلهم أدبارهم ليلبوها بسياطهم، بل أكثر من ذلك انخرطوا في جمعيات ليدافعوا عن حقهم في التزاوج والتوالد والتناكح وحقهم في العيش دون مضايقة المجتمع، وراحت الجرائد تعرض شهاداتهم عن المجتمع والناس والحياة والسعادة، مثلما

عرضت صورهم وهم يعرضون أجسادهم وأعضاءهم للبيع في الشارع في ليل الدار البيضاء والرباط، قريبًا من عتبات المنازل وأمام إقامات الأمن وداخل الخربات المهجورة، بل وقد عرضت المساء صورًا لبعضهم استل للتو عضوه من دبر قرينه بعد قضاء وطره منه قبل أن يمنحه هو الآخر مؤخرته ليفعل بها ما يشاء! الأخ الأكبر "عماد" تدرج في مدرسة الشذوذ شيئا فشيئًا: ابتدأ بالموسيقى، ثم مخالطة النساء، ثم التأنث في اللباس، ثم الإدمان على المخدرات وأخيرًا التشبه بالنساء ليجد نفسه في الأخير عرضة لإدمان جنسي شاذ ومقلوب، يفعل به، عوض أن يفعل هو في الكثيرات ممن عشقنه. ولما تأكدت الفتيات اللائي عاشرنه بأنه لا ترجى منه فائدة تركن طريقه، وفي غفلة وجد نفسه قريبًا من عالم النساء، فراح يبحث لنفسه عن ملاذ آخر محرم، ومحاط بكثير من البرك والأوحال. غاص عماد في وحل عشقه حتى العظم وولج ورطته من بابها العريض، برغبة منه، حد الغرق، ولن ينفعه معها حتى "صابون تازة" لقد فقد الرجل فحولته ودمر حلمه الذي كان يبنيه أيام زمان من الطين والرمل البحري بشاطئ النحلة بالبيضاء، وافتقد ثقة الناس واحترام الزملاء. أصبح امرأة وأية امرأة! امرأة تدير دهرها للآخر مثل ما تفعل البهائم، وأحيانا أمام الناس، قرب النوافذ وتحت الشجر في عتبات الليل المتأخرة: امرأة لا تلد ولا تلتذ، امرأة رغم أنف الطبيعة. سمى عادل نفسه ربيعة، وأطلق فتائل شعره، ثم صبغه على شاكلة أنجيلينا جولي،

وواظب على رياضة الأيروبيك لاكتساب ملامح جسد الأنثى. خسر نفسه، خسر الدنيا والآخرة، كما كان يؤكد الفقيه الجيلالي الذي يؤذن ويؤم الناس في الحي الذي يقطنه عادل أقصد ربيعة

"ربيعة" الآن تمارس الجنس الرخيص من أجل دريهمات قليلة، فيما كانت عزلة خانقة تفتك به. مع مرور الوقت لم تعد تزهو لربيعة الحياة في هكذا خناق، فقرر "ربيعة" السفر إلى الخارج بواسطة من أحد المسؤولين الكبار. قصد العمل مع طاقم قناة بورنوغرافية تدعى xxl. ولاقى نجاحًا كبيرًا ثم حصد ثروة هائلة: اشترى شققا في سيدي بوزيد والصويرة والحمدية والجوهرة الزرقاء "السعيدية" وكل المنتجعات السياحية، وفكر فيما بعد إنشاء شبكة منظمة لتسويق الجنس واللحم البشري الشاذ عبر هذه المنتجعات، مع حرصه على توزيع الشبكة وإنشاء فروع لها في الدول الأوروبية.

أصبح الشباب في المدينة التي ينتمي إليها عماد/ ربيعة، يتحدثون عن كيفية انقلاب القيم، من يستعمل العقل ويحصل على الشواهد والإجازات ينتهي به المطاف أحمق في بويا عمر أو ميتا بالسم أمام البرلمان أو حارقًا ومحروقًا في المحيط الأطلسي والبحر المتوسط أو بائعًا حقيرًا لأشياء تافهة في الشارع. ومن يبيع مؤخرته ويستعملها ينتهي به المطاف رجل أعمال وسيد أثرياء البلد. بعضهم ضحك كثيرًا حتى انقلب على ظهره وقال: "هذا عصر العضو التناسلي، كان في الخلف أو في القدام الأمر سيان، وليس عصر العقل

وبعد أن يسر الله على"ربيعة" ونجحت مشاريعها الكبرى حجت سبع حجات، ونالت احترام أهل الدرب وأهل الحزب، وبايعاز من الناس الذين يأكلون من تحت يديها وتعتبر ولية نعمتهم، تقدمت للانتخابات، وعقب حملة انتخابية حرقت فيها عشرات الملايين فازت ربيعة بامتياز بمقعد برلماني، ونظرا لعبقريتها/ عبقريتها سترشح فيما بعد لحقيبة وزارية وسيلتف حوله الناس الذين رشقوه/ها بسهام سبهم وشتمهم وسيصبح اسمه سي الحاج عادل مول الدار الكبيرة، وهكذا يتأتى له/ها أن يدخل المجد من بابه الواسع. هذه المرة تنفتق العبقرية من المؤخرة وليس من العقل أو الفكر. سبحان مبدل الأحوال.

رحلة البحث عن "كطرينة"

ظل ربيع بالرغم من حصوله على وظيفة محترمة بالجامعة، وتحسن أحواله المادية، واستقراره النفسي، معلقا بكطرينة مثل حلم، مهووسًا بتفاصيلها المشردة في مخيلته وشكلها الضائع الذي دفن مع أبيه "القريش" في القبر، والآن، بعد أن أصبحت له سيارة لا بأس بها ورصيد يكفيه للسفر، وطد العزم على المسير واختار عطلة الصيف. الطريق إلى الجديدة هو معبره الأساسي، لكن المعابر كثر، وأبوه كان يتحدث عن بن معاشو وأم الربيع.

"كنا يا ولدي نرعى الغنم على شط وادي أم الربيع قرب السد بينما كانت الشياه تنهمك في ملء محصلاتها من العشب الأخضر كنا ننخرط في لعب "هيري"، يدخل واحد منا إلى مركز الدائرة ويتحلق حوله، غير بعيد، اللاعبون، ثم بعد إشارة يبدؤون في قصف الرجل بالأرجل والأيدي بدون شفقة، يتهرب اللاعب المركزي من قصفهم السليط وتمويها لهم دون أن يخرج عن الخط، ولا بد في الأخير، بعد تلقي عنف شديد، أن يمس أحدهم ليعوضه في المركز، وتدور الدائرة الجهنمية على أغلبهم، وكثير منهم يعود وفي جسده بقع من أثر الضرب العنيف"

كانت السيارة تخترق الطريق الملتوية مثل الثعبان، وكلما صعدت الطريق منعرجًا أو مرتفعًا انطلقت سحابة من الدخان من المحرك، لم

تكن السرعة التي يسير بها كبيرة، ولم تكن المسافة التي تفصل بين البيضاء وكطرينة طويلة، غير أن تشوق ربيع للوصول، وعدم معرفته بالطريق جعلاه يتخوف من الضياع، فانتقل هذا التخوف إلى السيارة نفسها. تخيل لو كانت بجانبه فتاة جميلة تؤنسه في رحلة بحثه هذه. قال في نفسه: ماذا لو كانت أمي صادقة؟، ماذا لو كان أبي يخرف في آخر لحظات حياته؟ ماذا لو كانت كطرينة مجرد فكرة/ كابوس يقض مضجعي الآن بعد أن رحل والدي سنوات. لا يهم، ما يشدني الآن، هو أن أصل إلى هذه البلدة وأتعرف على عباس. لكن لو كانت معي امرأة الآن، في هذا الخلاء، تصوروا ما الذي سيحدث(...)، ما الذي ستحركه الوحشة والعطش والطريق الملتوي وشجر الكاليتوس الذي لحفها، شجر عملاق كأنه يتأبط سحر جزيرة الوقواق، لست أدري إلى أين أتجه الآن، لا يبدو لي أحد كي أسأله، وما لدي بوصلة لأعرف المتجه الصحيح، أريد أن أطلعكم على الشاذة والفادة ما دمتم مهتمين بأمر "كطرينة" أنا أهيم في هذه الطريق وحدي. الشحرورة نجاح سلام تغرد بصوت حزين في مذياع (إ ف م) وتغني (عايز جوباتك). يبدو لي هنا، بالضبط ٢٠ كيلومترًا على بعد سيدي معاشو، شيخ يسوق قطيعه. سأقف، وأسأله عن كطرينة، لا تذهبوا بعيدًا، انتظروني، سأخبركم عما قليل بما سيدلني عليه (عليك أيها الراوي ألا تدس أنفك في كل شيء، يبدو أنك وقح ومصر الزم حدودك، دعك هناك في السيارة).

الحمد الله! الرجل قال لي: كطرينة قريبة مني وإني في الاتجاه الصحيح ولم يتبق لي سوى سبعة أميال لأطرق بابها..سأصل إلى ثلاجة مركز حليب وبعده مدرسة ، ثم انعطف يسارًا مع أول طريق ترابية ، ثم أسأل عمن أريد، أسأل عن عباس.

كنت محظوظًا، وجدت عباسا حيًا يرزق، التقيت شابة سمراء طويلة القامة. سألتها. قالت: إن هناك أربعة عبابيس، أيهم تريد: قلت عباس الصغير الذي كان في البيضاء.قالت، هو راجل عائشة، نحن البدو لسمي الرجل بزوجته، هو هناك على ظهر البئر، أمام خيمته شجرة الطرفاء العتيقة وقبالتها زاوية الشريف، لن تتلف عنها، إنها كعلم على رأسه نار.

في وصف عباس:

كيف أصف الرجل الذي حدثني أبي عنه طويلاً؟ كيف أصف هذا الذي بحثت عنه مدة عشرين سنة؟ لست أدري ما الذي تريدون أن تعرفوا عن هذا الشخص؟ لن أقول عباس شخصية من ورق ابتكرها لي أنا الراوي السيد الكاتب، ومع أني لا أحب أن أدس أنفي فيما لا يعنيني، أنا رجل "دغري"، فما الذي سيفيدكم معرفة وصف عباس بن الصغير، لماذا أنتم فضوليون هكذا؟ ثم أنا لا أعرف هل أصفه كما كنت أتصوره من خلال حكايات أبي عنه، أم من خلال حكاياه هو عن نفسه، أم كما رأيته في الواقع؟؟. لكن المهم أن نرسم صورة عنه. سيقول لي بعض النقاد: أنت روائي فاشل لأنه كان عليك أن تقحم الوصف في أثناء الحكي دون أن تفصله، لكني أتعمد ذلك لأجعل قارئي يرتق النص بالشكل الذي يريد، فأنل رجل أثق في قرائي وفي قدراتهم، القارئ أذكى بكثير مما يتصور بعض النقاد المتعجرفين.

عباس رجل طويل القامة، شجرة وارفة بالرغم من مرور أزهى فترات العمر كان في أوج صحته وشبابه يجر جرارًا إبان وحله في طي الترس الوعر، أسمر اللون، وجهه اتخذ لون التراب. كانت أمه تقول. عباس ولدي كان أبيض مثل الحليب، لكن الشمس والعمل الشاق أحرقا سحنته، فتلونت! تقليدي إلى حد كبير يلبس الجلباب في الصيف ويضع عمامة خضراء تمثلا بأجداده من شجرة الولي الصالح الهادي بن

عيسى، وكان يشرب الماء المغلي ويروض الثعابين والأفاعي والعقارب ويخفف من أثر لسعاتها للناس بشكل عجيب، إذ يمسد مكان اللسعة، وتدريجيًا يخف الألم ويذهب السم.طيب حد السذاجة، بشوش لا يلقى الناس إلا مبتسما، طبعا، تغير عباس، انحنى عوده، ودهم وجهه كثير من التجاعيد، وعلت سحنته مسحة حزن باهتة، وربما اعترى ذاكرته كثير من الثقوب. صار رأسه مثل حجر كرانيتي أملس غاب عنه كل الشعر، وغطته عمامة بيضاء متسخة، تحس بأن هذا الرجل قريب منك تمامًا، وأنك عاشرته من زمان. ومع أنه يحمل في قسمات وجهه غلالة حزن عميقة، فهو مرح للغاية ورجل نكتة ودعابة، وهادئ الحـــوار، علمته التجارب ضبط النفس وروضت أعصابه.

كطرينة كما رأيتها ورآها فقيه

عندما تأتي من البيضاء المدينة الصاخبة بما فيها، وتحط الرحال بهـذه القرية الصغيرة، يخيل إليك، تماما، أنك في عالم منعزل، لا صلة له بمـا حوله. وحتى ضجيج هذه المدن التي تبعد عنها بأقل من مائة كيلومتر لا يصلها بطريقة أو أخرى. قرية تحتفي بغيابها بشكل حميمـي. كـل الناس متصالحون مع هذا العالم، ويضمرون قساوة غير مفهومة ضـد الطبيعة والناس والذات. أناس بسطاء تقهرهم الحاجة ويهدهم التعب، وتظهر على وجههم علامات المرض الخفي، لكنـهم يتعايـشون. لا يلقون العتاب على أحد، قانعون بوضعهم البئيس، قائلون أبدا: "هذا قدر الله" دون أن يرهقوا أنفسهم بالبحث عن جواب لسؤال. لمـاذا نحن هكذا؟؟ يقطنون بيوتًا واطئة مشيدة من الحجر والطـين، تحفهـا أشجار الكرم والصنوبر والصبار، ويخيل من أول نظرة أنها تتهدم عند سقوط أول قطرة مطر، أو عند هبوب أول عاصفة. يأكلون ما (قسم الله) خبز شعير وزيت زيتون وباذاز حافي، أما اللحم فمرة واحدة في الأسبوع. نظراتهم ساهية، عميقة وحزينة تغور في الأشياء والكائنات في تماه محير.

كنت أنظر إليهم متذكرًا صورة والدي في بداياته وشبابه وهو يصول ويجول في هذه المسافات، مكتشفًا أبي من جديد. بدأت أخيرًا أتلمس أسباب إلحاحه على دعوتي لزيارة هذه القرية. الـسكون والجمـال

الطبيعي وأنسام التاريخ تحرك في داخلي طفولة لم أعشها قط. تمنيت لو أني أستطيع أن أتجرد من وقار الأستاذ؛ لأشارك الأطفال الحفاة سعادتهم، وهم يجرون، أو يلعبون "القليع" أو "دينيفري" أو "هيري" أو "غميضة" المكان فسحة هائلة للتخلص من كل عقد الماضي والحاضر. ومناسبة لا تعوض لإجراء عملية التطهير الذاتي وإعادة تعمير الذات بحيوية هائلة: الطيور تزقزق فرحة بالربيع، آلاف الألوان الطبيعية من الورود والزهور تملأ العين، وهدوء ملفت يفتح لك شهية امتطاء الخيال الذي قتلته المدينة.

كنت، وأنا منشغل بالحديث مع عباس وأهل القرية الطيبين، أستحضر حكايا أبي عن القرية المقبورة، وحكايا الناس عن عباس، وأقارن بين ما أراه وما حكي لي، ساعيًا إلى لملمة صورة ما عن "كطرينة" التي أعدمها الجبارون في زمن مضى، ولم تعد سوى حلم أو ذكرى في مخيلة من عاشوا الحدث أو سمعوا عمن عايشه، وأغلبهم أدركه الموت. كانت عيناي تسبقاني إلى الآثار و السحن والبنايات والمخلفات القديمة، أتهجى عبر ثقوبها هيروغليفيات المنسي من الشخوص والأحداث والحوارات. عباس كان كالنبع الفاتر لا يعطي إلا بمقدار. لذلك كان علي أن أستحثه بقرف وصلافة أحيانا؛ ليحكي لي ويعري ذاكرته بين يدي، لكنه كان يتهرب دائما من الموضوع نحو مواضع أخرى هامشية:

– اشرب، اشرب كاسك يا ولدي الحديث طويل...اشرب راه غادي يبرد. لي فات مات، راني هاداك الشيء ملي نتفكرو لحمي يبورش.

– لا الماضي ما يموتش أعمي عباس.الماضي كيسكن فينا بحال الجرح، والمشكل أنه يسكن أولادنا من بعدنا.

طأطأ عباس رأسه، وكأني به يحس بورم متعفن يتفقس بداخله. اصفر وجهه لما علم من إصراري على المعزوفة ذاتها وجمع عظامه بصعوبة، ثم انسحب.

قصدت فقيه المسجد الذي عرفني عليه عباس أثناء العشاء الذي أعده على شرفي أول ليلة حططت الرحال بالقرية، وجدته منشغلا بقراءة بعض المتون وأمامه بعض الصبية يتلون القرآن الكريم. فقفلت راجعًا، وقصدت شجرة كرم (تين) قريبة من المسجد. جلست في الظل، أشعلت سيجارة، واتكأت على جدع الكرمة. كنت أنفخ الدخان إلى الأعلى فيشتبك بالأغصان في محاولة يائسة للتحرر غير أن الريح الدافئة ترده، فيذوب في متاهة الشجرة. وكانت حبيبات التين قد بدأت تظهر لحظتها، وغير بعيد ترعى أغنام في حقل، وفتاة جميلة القد تسقي الماء من البئر المتهالك. وكنت تائها في هذه التفاصيل، حينما أيقظني الفقيه، بصوته الرخيم وهو يناديني بأن أدخل إلى المسجد. لحظتها كان الطلاب قد غادروا، وكان الفقيه قد انتهى من طقس قراءته.

حكى لي الفقيه المختار –هكذا يناديه أهل الدوار "سي المختار"– عن علاقته بأهل الدوار، وحفاوتهم به ومسيرة تحصيله العلمي انطلاقًا من البلدة، مرورا بزاوية مولاي الطاهر القاسمي، وزاوية سيدي إسماعيل، وانتهاء بزاوية سيدي الزوين بمراكش.

لم يكن يعرف المختار عن والدي الشيء الكثير، والأمر نفسه بخصوص أحداث القرية. فلما غادر والدي وعباس القرية المستعمرة، لم يكن عمر المختار، آنذاك، يتجاوز الأربع سنوات، إذ لم يكن بعد يعي الأشياء والتحولات. قال لي: أتذكر أسماء وصور أشخاص صهب، كانوا يتكلمون لغة أخرى غير لغتنا كنت لا أفهم كلامهم، كانوا يمرون علينا بسياراتهم اللوندروفير سريعين، ونحن نلعب "غميضة" فنهرب جافلين، وتهرب معنا الأغنام والأبقار التي كنا نرعاها في أعشاب التلة الحمراء قرب الوادي الذي يصب في نهر أم الربيع. لكن المختار كان مرحًا، وانفتح قلبه لي منذ أول لقاء. كان يقول لي إن والده رحمه الله كان صديقًا حميما لوالدي، كلاهما لقي الآخر في دار البقاء، كان الأمر سيكون مفيدًا لو كان والد سي المختار ما يزال حيًا. كنا معا نرتشف "دكات" الشاي المنعنع بالشيبة، ونحيي الذكريات المردومة، وكنت أتحايل على سي المختار كي يفتح أرشيف ذاكرته أكثر لي، خاصة ما يتعلق بريبرتوار القرية المقبورة، تلك التي لم تتبق منها غير آثار متهالكة وذكريات شائهة تحفظها بشكل مضطرب ذاكرة جمعية منهكة: الناس منشغلون بالخبز والصراع من أجل البقاء،

مشغولون عن ماضيهم وماضي بلدهم وأجدادهم بحالهم القاسي، الذي لا يرحم. وحدي مثل أحمق جئت من أجل أن أنغص عليهم هنـــاءهم بخرافة اسمها "كطرينة القديمة" وأحلام رجل اسمه "القريش" لم أكـــن أجد لديهم غير نظرات مستهزئة ومرتابة. وكان المختار وحده يجـــد فيما أحكيه طرافة ومتعة وداعيًا لشرب المزيد من شقوف الكيـــف، والسهر على إيقاع الحكي بعيدًا عن المسجد في بيت مستقل منحتـــه إياه القبيلة مقابل الآذان في الجامع وتدريس الـــصغار وإمامتـــهم في الصلاة وتلاوة حزبين كل يوم. على هذا الإيقاع يعيش المختار حيـــاة منتظمة وفق رتابة يومية قاتلة. سألت الفقيه عن كيفية تصريف همومه وضغط النظام الصارم لعمله. فأجابني بكونه ليس من حجر، بل إنسان من لحم ودم، له مسارب يصرف عبرها ضغطه اليومي.

ضحك سي المختار وهو يحكي لي دون تحفظ، وتلقائية عـــن تجربتـــه العاطفية، بالرغم من الحصار المضروب عليه، قال لي بكون النساء هنا، هن من تستدرجني، مع أنني أهرب من فضائحهن ومكائدهن. بعضهن تأتيني بالفطور أو الغداء، ثم توحي لي ببعض الإشـــارات الجـــسدية برغبتها في، أو إطلاق دعوة صريحة للدخول في مغامرة مثيرة، خاصة وأن القبيلة لم تكن تحرم تردد النساء على المسجد متزوجات أو أبكارا أو مطلقات أو أرامل، لغاية من الغايات المعروفة، طلبا لتسمير الضرس العليل وتسكين وجع الرأس أو كتابة آيات الـــشفاء علـــى الكـــف ولحسها أو ضرب الخط ومعرفة البرج أو حساب الطالع أو الإتيـــان

بالمأكل للطلاب (المحضرة) أو اصطحاب ابـــن أو أخ... أو غيرهـــا. أعرف أن الكثير منهن تأتي لغير ما تظهر، لكني غالبًا ما أتغابى. لكـــن أحيانا يصادف ذاك الإغراء اللذيذ ضعفي، فانهزم أمام نداء الجـــسد، وأذعن لرقصات الرغبة داخل جسدي: كلمات قليلة، أحيانا مشفرة، ويكون اللقاء في غرفتي ليلا ما دام ذلك يستحيل في النهار تتسلل إلي الأنثى في جنح الظلام هاربة من فراش تبرده غيبة الزوج أو عجـــزه، تدفعها رغبة لا تقاوم في معانقة دفء الفحل الممكن. قد تتزين أو لا تتزين، تقوم إلى في عطر أو في غيره، ومهما يكن من أمـــر، فاللقـــاء المسروق له سحر لا يقاوم، نلهو ساعات على ضوء الشمع، وصوت الحاكي، نتبادل الارتواء، ونحرق الشوق بالوصل العنيف. تنـــسحب قبل أن يستفيق أول فلاح. أغتسل- بعـــد أن أســـتغفر الله وألعـــن الشيطان- ثم أقصد المسجد للآذان والصلاة بالنـــاس. وأحيانـــا إذا كانت الأنثى تستحق المبادرة، وكانت المغامرة مأمونة الجوانب بنسبة كبيرة، أروح أنا إليها: أشعل جسدها وبيتها ساعات، ثم أنصرف. كل واحدة من هؤلاء العشيقات يعرفن أنني أفعل مع أخريات مـــا أفعـــل معهن، لكنهن لا يتحرجن من ذلك ، ما دامت طلباتهن معروفة، على الأقل، هن يعفينني من حروب أنا في غنى عنها. كم منـــهن كانـــت عاقرًا، وبعد أن وطأها قضيت حاجتها بفضل خلواتنا الليلية، وقد أقام زوجها العجوز الولائم على شرفي ظنًا منه أن الطلاسم التي صنعت لها هي من جلب إليها الولد، وطرد عن رحمها شياطين العقم.

قال لي وهو يداعب شعيرات صدره:

– اسمع يا أستاذ، لم أتذوق طعم الجسد مثلما فعلت هنا، ذقت اللحم الزموري والأمازيغي والبنوري والشاوي والسطاتي لكن هنا: يا سلام!

(توقف قليلا ليتنشق شقفا من الكيف ثم تابع):

الكتلة الأنثوية هي ما يشدني إلى الحياة في هذا الصقع الريفي القاسي، رجل مثلي أعزب في عز الشباب، منفي هنا، في الوقت الذي يجب أن ألتذ وأستمتع وأتجول وأعرف العالم. الجسد الأنثوي هو الخارطة التي من خلالها أدرك أنني ما أزال موصول الحبل بما حولي. الجسد هو الرحمة التي تحل بي حيث تعصف بي الوحدة والضيم والجوع والبرد بين هذه الجدران الموحشة، التي لا يؤنسني فيها سوى هذا الشمعدان البئيس والمذياع رقم ثمانية. المجد للنساء، وحدهن يعرفن قسوة ما أعانيه فيمنحنني كل شيء: الطعام والمال والشهوة. هن أحسن من أزواجهن وآبائهن وحماتهن الذين لا يأتونني إلا حينما يريدون أداء طقوسهم الدينية ببرود تام، ودون استسغاء. فبمجرد أن أنهي الركوع والسجود يجفلوا إلى حال سبيلهم قبل متم الدعاء، ماذا عساك تنتظر مني أن أفعل، تريد مني أن أصبح متجمدًا، متصلب الأعضاء في برودة ليل هذا الصقع، أو مجنونًا خارجًا عن نطاق العقل في جفاف العلاقات البشرية هنا.

أنا لا أعرف كم بشرا مر من هنا، كل ما أعلم أنهم كثيرون، وأنهم يختلفون عني سلبًا وإيجابًا. أنا لا أحب هذه الحياة يا أستاذ، أنا أغبطك،

تتجول ولك سيارة وتعيش في المدينة، وتدرس فتيات جميلات وشبانا متفهمين. تذهب إلى السينما وتتابع الأخبار في الشاشات العملاقة الملونة، وتقرأ الجرائد الممزوجة بطعم القهوة في أفضية البيضاء. أنا معذور، لا أستطيع أن أفهم العالم – مثلك– خارج فضاء الجسد. أنت جئت تبحث عن التاريخ، عن سر كطرينة، عن رؤيا أبيك، عن سراب اسمه الحقيقة، أنت واهم يا أستاذ. هؤلاء ما يهمهم سوى لحظتهم: الخبز والجسد، وما دون ذلك إلى الجحيم. أنت تأتي لتنقب عن (جوا منجل) يا أستاذ!!

ما أكرم نساء البلدة! جرب ربما تجد عندهن بعضا مما تبحث عنه. هن كريمات. تصور يطعمني أشهى الطعام نهارًا، وفي الليل يمنحني ما لا يمنحه لأزواجهن العاجزين المنصرفين إلى هم الدنيا ووسخها. يقلن لي: (أنت لي طالعة ليك الدنيا واكل الرأس وراكد على البطانة)، وفضلا عن هذا ينقلن أموال أزواجهن مقابل طلاسم المحبة و"الثقاف[٣]" والربط والشقاق وغير ذلك مما أعلم ومما لا أعلم، بعضه يصلح والبعض الآخر لا يصلح. جرب يا أستاذ مثلي ولن تندم، يمكنك الاعتماد علي في هذا الأمر. قد يتيسر لك الظفر بأولاهن وأحلاهن الليلة (ما رأيك؟).

---

[٣]- المثقف يعني الرجل المسحور الذي يفقد فحولته بفعل أثر السحر، و"الثقاف" نوع من السحر يفشل الأداء الوظيفي الجنسي للرجل. وهما كلمتان عاميتان بالدارجة المغربية.

المرأة وحدها يمكنها أن تنقلك صوب غابة أشواقك. أما عباس وطينته فمنشغلون بأشياء أخرى لا تفهم فيها أنت شيئًا. أنا لا أفهم "كطرينة" التي تبحث عن سرها إلا امرأة شبقة كان يهواها والدك ورحل عنها، فبقي هواها عالقا في ذاكرته، ثم استفاق قبيل رحيله إلى العالم الآخر "كطرينة" هي هذا الجسد الذي أسرني هنا منذ سنوات كلفتني الكثير من العمر والصحة والمال والعلم...لا أعرف كم ضيعت حقا من الأشياء، لكني بالمقابل ربحت ثقافة جسدية لا بأس بها. هنا الجسد وحده يمكن له أن يحكي في الظلام خفاياه ولوعته. فهل يمكن أن تحدثني أنت – يا الباحث عن الحقيقة– عن جسد مدينتك. آه كم أشتاق إلى معرفة هذا الجسد؟ هل يشبه الجسد الزموري أو البنوري أو الأمغاري؟؟؟ المهم هو أن تنسى هذه "الكطرينة" وتحكي لي.

السر الأول: رأس الحكمة

قال عباس وهو "يشقلب"[٤] البراد لينسجم الشاي مع نفسه، (تعرف يا ولدي، يقال – والعهدة على جدي الأول لأبي– أن كطرينة سدرة شطب كبرى كانت تفرعن في هذه الأرض على مساحات شاسعة، وكان بجانبها مسجد عتيق يقصده الطلاب لحفظ المتون. وحدث مرة أن حل بالديار غريب، رث الثياب، متعب الملامح، على وجهه وقار عميق ونزل يطلب المسجد، فأكرمه أهل الديار وكان عدد الخيام آنذاك لا يتجاوز الخمس. ومع مرور الوقت أعجب الناس بعمله وورعه وكراماته. إذ دخل عليه رجل بعد صلاة العشاء فوجد لديه أكلاً غريبًا: عنب رائع في غير وقته، ودجاجة محمرة وخبز قمح "مكرمل"[٥]، وهي أكلة لم يتسن قط لأهل الدوار تحقيقها للفقيه الغريب، وكيف يحصل ذلك، وهم يأكلون خبز الشعير وزيت الزيتون والتين المجفف. ذاع صيت الفقيه السوسي الحامل لكتاب الله والحافظ لمتون كثيرة منها الدمياطي، فتقاطر عليه الطلاب من آفاق بعيدة.

وبعد أن استأنس الفقيه السيد بهليل بالمكان، وكان هذا هو اسمه، وشكل مع طلابه أسرة منسجمة، كلف طلابه بالبحث في السدرة العظيمة عن أفعى بسبعة رؤوس كشفت له صورتها الطلاسم الدمياطية

٤- يملأ كأسا ثم يعيده إلى البراد بغاية خلق انسجام المشروب.

٥- المقصود بها المطهو جيدا على نار هادئة فوق الفران البلدي

وبينت له الحسابات الرملية إحداثيات تواجدها الجغرافي. فجاء من أجلها قاطعًا المسافات الرهيبة ومتجشمًا المخاطر والمتاعب الجمة. وحده يعرف سر هذه الأفعى الغريبة الأطوار، ووحده يسعى لكشف أسرار طرافة شكلها. ولم تكن المهمة التي كلف بها الفقيه طلابه سهلة. فقد كانت السدرة منتشرة على مساحات عريضة. وعلى الطلبة التسلل في المسارب بين الأشواك والأغصان الدامية لـ"السدرة المحررة"[٦] وليس أمامه من حل غير إيجاد هذه الأفعى حتى ولو طارت إلى السماء. فهذا أمر الفقيه، وما أدراك ما هو!!

تجند الطلاب كل واحد تكفل بمهمة خاصة بحثًا عن الأفعى، البعض يترصد، والبعض يقوم بالحراسة، والبعض يراقب مورد الماء قرب النهر الصغير، وآخرون يتتبعون أثرها على الرمل، وآخرون يحملون أسلحة؛ ويطوفون داخل مسارب السدرة الكثيفة المشوكة.

قال لهم والليل ينشر ظلامه الرهيب على غابة السدر

– كلما تفانيتم في البحث اقتربتم من فاكهة العلم، العلم يقتضي التفاني في طاعة الشيخ وخدمته. هل تفهمون؟

حشروا رؤوسهم، وبدؤوا ينظرون إلى الأرض. لم يجرؤ أحد منهم على النظر في وجه الفقيه المجرب، كانوا يخافون أن يحدس أفكارهم، ويقرأ ملامحهم. فكم مرة أخبر أحدهم فيما يفكر

---

[٦]- السدرة العريقة التي لها جذور عميقة في الأرض، ولم يتم قطعها منذ وجودها الأول.

وتابع الفقيه حديثه:

وأنتم تبحثون اقرؤوا ما تحفظون من متن الدمياطية وابن عاشر وسيدي خليل، لا تهدروا الوقت أبدا.

وتشتت الجمع، وعددهم أربعون نفرًا، كل يقوم بما يلزمه من أجل الظفر بالأفعى ذات الرؤوس السبعة.

كان البعض من الطلبة يعتقدون أن الفقيه يريد اختبار وفائهم، فيما كان بعضهم متأكدًا من عزيمة الفقيه على البحث وحدسه الصائب حول وجودها في السدرة.

لطالما اشتكى أهل القرية من اختفاء ديك أو حمل، لكنهم قلما فكروا في وجود أفعى هنا، قال عنها الفقيه أن عمرها خمسون سنة وما يزيد ولها سبعة رؤوس، في إحداها حكمة سرية لا يعلمها إلا العارفون. لكن السؤال الذي أرق الطلبة وذويهم هو كيف عرف هذا القادم من سوس أمر الأفعى والسدرة والرؤوس والحكمة؟؟

بات الطلبة الشبان ينقبون بتفان، يتعرقون وينشفون، فتتصاعد رائحة النتانة إلى أنوفهم، وهم يتلون ما حفظوه عن الفقيه العلامة السوسي، وكانت ذاكرتهم تتلقف بشكل غريب ما يردده الآخرون مما لم يصلوا إليه أصلا. وطيلة مدة شهر كان الطلبة يفعلون ذلك صائمين، ومن الغرابة أنهم لا يحسون لا بالجوع ولا بالعطش. إذ انطفأت رغبتهم إلى هذه الأشياء. كانت أرواحهم مركزة على ما يبحثون عنه، وعما يحفظونه من متون. أما الفقيه سيدي بهيليل أو سيدي محمد البهلول، فقد

كان يشد حوله سلهامه الأبيض ويجلس أمام باب المسجد، محركا شفاهه بتعازيم ملغومة، ومتون غير مفهومة، مركزًا نظراته الحادة على الغابة التي تنشر أطرافها على الفدادين المجاورة: كان قصير القامة، شديد بياض الوجه، شديد سواد العينين، له حاجبان يقترنان عند أسفل الجبين. صموت لا يتكلم إلا عند الحاجة. وكثيرًا ما يستعين بالإشارات وملامح الوجه اختصارا للجهد واقتصادًا في الكلام.

كانت أفعى السدرة تظهر له وحده، لكنه لا يمكن أن يقبض عليها بنفسه. تعب عباس من الحكي، ظننت أنه سيشعل سيجارة، لكنه لم يفعل، رفع البراد عاليًا وراح يتأمل سائل الشاي الأحمر، وهو يحدث شخيرا لما يصطدم بقاع الكأس الزجاجي (حياتي)، وكأنه يعصر ذاكرته بحثًا عن بقية الحكاية.

مد لي كأسا وأخذ رشفة ثم تابع الحكاية:

حاصر الطلبة الجهة الجنوبية المحاذية للمسجد، وحدها المتبقية لهم. فقد مسحوا الغابة غصنًا غصنًا وغارًا غارًا وفي لقطة عسكرية جماعية داهموا هذا الجانب، وقالوا:

- نشعل النار ثم تراجعوا.

نضرب الأغصان بالهراوات، نصرخ، ففعلوا.

فوثبت الأفعى إلى الأعلى غاضبة، وفحت، فهلع الطلبة، لكنهم لم يكونوا مستعدين لتركها تزهق من بين أيديهم. فتلك أوامر الفقيه.

تنهدوا جميعًا، وسدوا المنافذ، ومثل الأسود رموا عليها هراواتهم دفعة واحدة، فسقطت تترنح في دمائها مثل أضحية العيد. كانوا قد ضربوها بقوة عزيمتهم قبل أن تسقط عليها هراواتهم وأسلحتهم. تنهدوا الصعداء أخيرًا، وظنوا أنهم ارتاحوا من هذا الثقل، وهم ينادون الشيخ قصد تسلم الصيد الثمين. لكن الفقيه السوسي ابهيليل وقف بهدوء عند رأسها وتأملها مليا قبل أن يشير للطالب الطاهر بقطع رؤوسها السبع ووضعها في إناء جلبه معه من سوس.

اجتمع الطلبة الأربعون أمام القدر، وقد بدأ يغلي بالرؤوس السبعة فوق نار مزدهية. وكلما شارفت النار على الانطفاء أضاف إليها الطالب المكلف بالحراسة الفحم ليستمر الطهي حوالي سبعة أيام بلياليها. كان الطلبة طيلة تلك المدة يتناوبون على حراسة القدر وإضافة الوقود. كانت تلك وصية الفقيه فضلا عن استشارته كلما حدث طارئ أو تحول على مستوى القدر والرؤوس.

وفي الليلة السابعة بعد منتصف الليل كان دور الطالب عبد الرحمن قد حل، وكان الطلبة كلهم قد كلوا ولحقهم تعب شديد، ولم يعودوا يطيقون تخريف الشيخ الذي يغط في نوم عميق. كان الواحد منهم يقول للآخرين الذين يضجون في الضحك بيأس:

"جينا نقراو القرآن وسيدي خليل والأزهري والأجرومية والألفية، ولينا طباخة ورحاحلية نشدو الحناش ونطيبوهم، ما عرفنا هذا الفقيه فين غدي يشدها بينا. الله يسلك والسلام"

بات عبد الرحمن ولد عياد يراقب النار وهي ترقص مع البرد، ثم يتصاعد لهلوبها الأحمر المصحوب بدخان الفحم، فيتجاوز القدر كان يتأمل النار ويغالب النعاس الذي يستبد بجفنيه، ولما يحس بتضاؤلها يزندها ويضيف الفحم الذي احتطبوه من الأشجار اليابسة المتخللة للغابة. كان الصمت سيد الوقت لا يكسره سوى صوت النار وهي تلتهم الحطب، وكان الفتى عبد الرحمن يستأنس بما يردده من متون حفظها منذ مدة. غير أنه فجأة، وهو منهمك في زند النار تحت القدر، إذا برأس من رؤوس الأفعى ينط من القدر خارجا ليسقط في حجره، فمسحه وأعاده بهدوء إلى القدر، ولم يفطن إلى نصيحة أستاذه بإيقاظه من النوم كلما طرأ جديد على الرؤوس والقدر.

كانت هيبة شيخه تسبق إليه، وكان يؤجج هذا التباعد بينهما خلاف عميق لا يظهر. كما أن عبد الرحمن عرف بعناده الشديد. وبينما عاد عبد الرحمن ليزند النار، فاجأه الرأس نفسه ينط من القدر من جديد في حجره، فأعاده عبد الرحمن بعصبية هذه المرة. وقال في نفسه:

– "لو خرجت إلي مرة أخرى لآكلنك ولو طردني الشيخ" كان عبد الرحمن لحظتها، وهو يبرم مع الرأس هذا التواطؤ يحس بحدس أنه سيكرر الخروج من القدر. إذ ما هي إلا لحظة حتى قفز الرأس نفسه من جديد، فتلقفه عبد الرحمن واثقا، وبمجرد ما ابتلعه انتابته نوبة ندم شديدة مثل تلك التي انتابت آدم وحواء عقب الخطيئة الأولى التي أخرجتهما من الجنة، لكنه مع ذلك ظل يزند ناره التي أصرت على الانطفاء وباتت

تعاكسه، فصمم على إيقاظ الفقيه. مسح عبد الرحمن على يد شـــيخه كي يفيق. فهب السيد اهيليل من مرقده فزعًا كأنما كان يداهمه كابوس مروع. وسأل عبد الرحمن:

– ما الخطب؟؟

قال عبد الرحمن وعلامات غريبة تفضح قسمات وجهه العريض.

– النار عاكستني وأبت الاشتعال.

رد الشيخ غاضبا:

– والرأس ماذا فعلت بها؟

احمر وجه عبد الرحمن وخرس لسانه.

فبرد الدم في أعضاء الفقيه الذي أقعى مثل فرس متعب، وقال:

– أكلتها يا مجنون، اغرب عن وجهي.

فرد عبد الرحمن غاضبا ومعتذرا في آن واحد:

– أنا مجذوب ولست مجنونًا.

فأغمي على الشيخ، وبقي كذلك زهاء أربعين يومًا، ثم مات بعد ذلك. أما عبد الرحمن فساح على وجهه في الأرض ناطقا بأزجاله الحكيمة التي أوحت له بها رأس الحكمة التي سرقها من شيخه محمد البهلول. ودفن البهلول بنفس المكان قبالة كطرينة التي اجتثت عن آخرها، ولم يعد لها أثر. أما ضريح الشيخ البهلول فهو ماثل إلى الآن، ويزوره الناس مـــن كل فج عميق.

– كيف عرفت يا ولدي هذا الاسم، لقد نسيناه ولم يعد أحد يتذكره أو يذكرنا به؟

قلت محاولا إبداء تأثري:

– لقد كان الوالد رحمه الله يحكي لي عنها كثيرا دون أن يعرفني عن كنهها.

تسلم الحاج "الصاقي" كأس الشاي، ارتشف منه جرعة، ثم قال:

كان ذلك منذ زمن بعيد يا ولدي، كنا آنذاك على أعتاب مرحلة الشباب. ولم تكن خبرتنا الفتية تتيح لنا فهم الأشياء على حقيقتها، كان الاستعمار وكان شيخ الرمى وكانت الكرامات وكانت أشياء أخرى مثل عيشة قنديشة وبوعو وخوخو وغيرها. وكطرينة هذه التي تسألني عنها ما هي سوى جنان تين غرز بفعل فاتحة مقلوبة أقامها طلاب المسجد عليه، احتجاجا على صاحبه الذي طردهم منه، ومنعهم من اللوذ بظله والاستفادة من فاكهته. ومنذ ذلك الوقت والجنان قائم أخضر مورق، لا غلة له. أقام الناس الولائم وسقوه بدم الأضاحي دون أن ترتفع عنه لعنة الدعاء.

السر الثالث: القرية المحروقة

دلني أهل الدوار على رجل كهل يقطن قرية مجاورة تـــدعى جعاطـــة الجنوبية توجد غير بعيدة من قرية لبيادرة المتاخمة من ناحية الغرب لموقع كطرينة. لم تكن الطريق طويلة، غير أن الشمس كانت لافحة. سلكت طريقًا ترابيًا يخترق صفين من أشجار الكاليتوس الوارفة، المورقة. كانت خيمة الشيخ على جانب الطريق مباشرة. أوقفت السيارة تحت الشجر ثم أطلقت الكلاكسون مرتين، فخرج شيخ يتوكأ على عكازه، ويمشي محنيا. ترجلت وسرت إليه لأعفيه من مزيد من التعب.

قلت له: أنا ابن الكريش مسعود!

عانقني وهو يبتسم. ثم شد بيدي بقوة ، واستدرجني نحو الداخل. كان بيته متواضعًا، مبنيًا بالطين والطوب والحجر الصلب. وكـــان الـــشيخ يعيش وحيدًا بعد وفاة زوجته، ورحيل أبنائه إلى المدينة، جلسنا معًا على حصير من السمار أزال الرجل نظاراته ثم حط عينيه، وراح يتـــأملني، وكأنه يقرن بيني وبين والدي، متسائلاً عن أحوالي وأخبار الأسرة، وما تأخر من أخبار الوالد قبل وفاته.

بتنا نتجاذب أطراف الحديث، وجررته للحديث عـــن (كطرينـــة). فحكى لي قصة طريفة تخالف ما حكاه لي عباس والحاج الصاقي. قال: اسمع يا ولدي هي ليست كطرينة من القطران ولا هي ما حكاه لـــك الرجلان. لقد التبس عليهما الأمر كطرينة قرية دمرت، ولم تبق منـــها

غير السدرة والجنان العاقر. تلك قصة مبكية يا ولدي ما عدت أطيق الحديث عنها أو تذكرها. إنها تحيي مأساة قرية وساكنة أكلتها النار ببرودة أعصاب. فعلها المستعمر منذ ثمانين سنة خلت. كنت ما أزال في بطن أمي لما وقعت هذه الأحداث. وكان الاستعمار حديث عهد بالبلدة. انتفض أهل القبيلة في وجه الحاكم العميل الذي بعثته القوات الفرنسية ليروض الثائرين. ولما وصل إلى البلدة كانت فوضى عارمة تنتظره من اللغط والسخط. وما إن وقفت سيارته أمام السدرة حتى صبت عليه الحجارة من كل ناحية، ولم يعرف ما يقدم ولا ما يؤخر أمام عاصفة الغضب الشعبي، والأصوات الخافقة وهي تردد:

"يا عميل سير فحالك، كطرينة ماشي ديالك"

وظل الجمع الهائج ينهش القائد ومساعديه حتى خمدوا غارقين في الدماء. وفي ذلك المساء، وبينما القرية تنعم بهدوء النصر، وإذا بالقوات الفرنسية تداهم المكان مدججة بكل أنواع الأسلحة. فأحرقوا الخيام وهدموها، وأتلفوا المزارع والمروج، وقتلوا الناس زرافات ووحدانا. وما كان الصباح حتى بدت القرية رمادًا خامدًا. وجيء بأحد أبناء الحاكم المقتول، ونصبوه حاكمًا بعدما ملكوه كل الأراضي التي هناك. فأذل ما تبقى على قيد الحياة وسخرهم عبيدًا في ملكهم وملك آبائهم الذي ملكه عنوة بدون حق. لقد كانوا يحرثون الأرض مثل البهائم، ويرعون القطعان، ويجمعون المحاصيل في نهاية العام. وما يكسبون إلا قوت يومهم الزهيد. أترى يا ولدي كم هو محزن أن تتذكر هذه الأحداث؟.

كنت حينئذ أتقيأ من الألم، وأقول في نفسي: ما ذنبي يا والدي حتى تورثني كل هذا الشقاء. مات الحاكم، ومات الناس، وأحرقت الأراضي بغلاتها، وضاقت الأرض بمن عليها. وما الذي أستطيع فعله أنا في هذا الزمن العويص؟.

أحس الشيخ أن كلامه قد حز في أعماق نفسي، وترك أثرًا بالغا، فواصل:

– من حسن حظ أبيك أنه لم يحضر تلك الفاجعة. لو حضر لما كنت الآن موجودًا. مشيئة الله تتصرف بعباده. كان جهدنا قليل يا ولدي، ولم نستطع التغلب على الحديد ونحن لا نملك سوى أرواحنا التي أزهق منها الكثير. دماء كثيرة سقت هذه الأرض، لذلك ربما أدمنها الجفاف. الأرض تكره الدماء يا ولدي، الأرض كائن يحس وله مشاعر أيضا. والبشر لا يراعون هذه المشاعر. ما يهمهم سوى أناهم المضخمة، يرضونها ولو على حساب العالم كله هل هناك تفاهة أكثر من هذه؟؟

قبلتُ رأس الشيخ واعتذرت له. ثم دستُ في قلب جلبابه ما تيسر من نقود يغالب بها "دواير الزمان" الصعب، وخرجت متأبطاً حزناً شديدًا، منكسر الخطى. ركبت السيارة، وغرقت في التفكير، كنتُ كأنما أسوق سيارتي في كوكب آخر.

السر الرابع: الحسناء المغتصبة

كان لبوشعيب شوطح رأي آخر. سألته: لما التقيته صدفة عند عباس حين كان مريضًا. تمشينا طويلاً على الأقدام، وأذهلتني ذاكرته القوية رغم أنه يدخن الكيف بشراهة. كان يذكر الأعوام بالتدقيق، ويفصل الأحداث بالتفصيل الممل، وكان له إلمام بأنساب القبيلة. بل حتى الشجر والحجر والكلاب والبهائم كان يحفظ سيرها، توقفنا عند ركام من الحجر. جلس شوطح وطلب مني الجلوس. الحجر بارد يثلج المؤخرة، يجعلك لا تحس بجسدك. أشعل سبسيا من الكيف. شرب الدخان بشراهة، ثم قال:

– يقولون كطرينة بالكاف والطاء. والصحيح أن بالكاف متبوعة بالتاء.

هي "كترينا" زوجة الحاكم الموالي لفرنسا القائد "بوشعيب المعنكش امرأة جميلة ما تزال صورها الآن تملأ عيني. لم أر، لحد الآن، أجمل منها. كانت تتكلم بالفرنسية، وعربية ركيكة. وكانت، لما تمر من ذلك النهج (وأشار بيده إلى طريق ترابي قريب) تصل رائحتها إلى كل القرية. كانت تلك الرائحة تهيج حتى الكلاب. تمر كل يوم أحد صباحًا ممتطية فرسها الأخضر المدرب: شعر أشقر، عار يتلاعب به نسيم الصباح، عيناها خضراوان مثل زيتونتين، وجهها دائري أبيض مثل الفضة، أما قدها وقوامها: يا سلام، فتنة تتربص بها كل شياطين الإثارة، فلا تستطيع

الفكاك من أسرها. كان زوجها يدللها، ويمنحها حرية فسوق العادة. فتستغل تلك الحرية لتخرج إلى الصيد وحدها دون أن تحسب العواقب ظانة أن هيبة زوجها سترعاها حيثما ولت. وتحميها من مجانين البدو الذين تقتلهم فتنتها العارية. كان شباب القرية يختلسون إليها النظر، وهي تقضي حاجتها في الخلاء، ويحتلمون على شكل مؤخرتها وردفيها مرات عديدة أثناء النوم ليلا.

كل شباب القرية كانوا ناقمين على القائد المعنكش، فهو يسخرهم عبيدًا له مقابل بطونهم. ويهينهم بشكل يومي في المزارع، وفي قصره القريب. وكانوا يتصيدون الفرصة لرد الدين الثقيل. وكانت كترينة هي مفتاح الهم الذي يمكن أن يلوي رأس القائد ويطيح بكبريائه.

اجتمع الشباب: عشرة شبان أقوياء، واتفقوا على اغتصاب كترينة جماعيا. كمنوا لها جنب شجر الصبار وضعوا لها حاجزًا. تأخرت إلى ما بعد الغروب ذاك اليوم. ولما سقطت إثر تعثر فرسها بالحاجز داهمها الشبان العشرة. أغلقوا فمها ونقلوها إلى كهف مجاور. وتنابوا على مضاجعتها غصبًا. وكانت وجوههم مقنعة على شاكلة نينجا. فهشوا جسدها الشهي بضراوة، وأسكنوا رحمها حيواناتهم القذرة انتقامًا من زوجها، ثم تركوها تذهب. لم تستطع كاترين أن تخبر زوجها. ولم يفطن زوجها لما حدث لها، ربما لأنه يتوفر على زوجات أخريات. نسي الأمر لكن كاترين ظلت في الذاكرة يا ولدي.

– وهل كان والدي الكريش من زمرتهم؟

حك شوطح حاجبه، ثم قال:

– من المفترض أن يكون حاضرًا معهم. فكل من حضر الواقعة كان مجايلا لوالدك. لكن لا تأكيد لدي.

قال ذلك ثم قام من موضعه، وحياني، قبل أن يختفي وسط الأشجار.

ذهبت عند الفقيه المختار لكن النوم جافاني طيلة الليل. حيرة عظيمة كانت تشتت ذهني. أية كطرينة يقصد والدي؟

الفقيه المختار رجل ساخن بالرغم من بلوغه سن الأربعين. ولوع بأجساد النساء. يظل عليها ويبيت. حلمه دائمًا جسد طري. قال لي ساخرا:

– اليوم سأبرعك[٧] ستأتي عندي امرأتان بدويتان، واحدة لي وأخرى لك. لا تخف أنت ستختار الأول. وإذا لم ترد. سأنام معهما معا. إني هكذا طبعت لا يمكن أن أرد جسد الأنثى. قلت له جادًا:

– أنا ما أتيت هنا لهذا الغرض، لقد تركت في فاس والبيضاء هذه الأشياء. أتظن أنني جئت من سجن في الصحراء؟

سكت برهة قبل أن يرد.

– أقصد أنك حيثما ذهبت لا بد أن تضاجع، فذلك الشيء مثل الأكل والشرب. وهو حاجة طبيعية لا بد من تلبيتها. وكما يقال فلكل طعام طعمه. لا تيأس. اضحك والعب. ثم دع الأمور الأخرى تأتي من

---

[٧]- سأمتعك تمتيعا.

تلقاء ذاتها. الدنيا إذا أحبتك تأتيك من كل ريح، وإذا كرهتك تذهب ولو ربطتها بالسلاسل.

كان يتكلم ويقصص الكيف، ويقلب الأمواج في راديو ترانزيستور كبير بعصبية. وكان القمر كرة حمراء تصعد من الشرق وسط ظلمة حالكة. وقفت عند عتبة الباب، وبت أتأمل المشهد: الصمت والقمر وعبد الهادي بلخياط يغرد في المذياع رائعة القمر الأحمر. والليل يتحرك يزحف نحو الغرب بإيعاز من قمر يشتعل ببطء. قلت في نفسي، المختار معه حق: في هذا الليل الذي يخفي خطايا العالم، كم يحلو طعم الخطيئة. يتحول الفقيه إلى شيطان، والناسك إلى فاجر، تمد يدك البيضاء فلا يظهر منها أثر. تذكرت وجوه من عبر هذه الدنيا ثم اختفى. أبي عاش هنا. أحرق طفولته وشبابه في هذا الفضاء قبل أن يهرب إلى المدينة فارًا. عباس يحتضر ببطء بعد حياة ملتهبة: خوف قهر وفقر...عباس الذي جئت من أجل أن يحكي لي، ودع ذاكرته التي خربتها الثقوب. الحاجة والنسيان طاعونان للإنسان. اشتممت رائحة عطر قادم في الظلام. المختار يدخن الكيف ويغني مع عبد الهادي بلخياط. قلت له: شبحان قادمان. قال، هما تعرفان الطريق، أفسح لهما. دخلتا يسبقهما ريحهما البدوي: رائحة الورس والحناء والقرنفل وعطر بلدي. أصبح هناك ثلاثة أقمار. واحد يضيء العالم، واثنان يضيئان الداخل. تكومت في المانطة. واحدة تقترب مني لم يسبق لي أن عرفت واحدة هنا. المسجد خلفنا ببضع خطوات. ما الذي سيقوله هذا الفقيه لله. يعلم فتياتهم نهارًا

وينكح نساءهم ليلاً. أنا لست فقيهًا. الشيطان يقترب مني. أنا أهرب منه. هناك حواس مني تستجيب له، تتواطأ معه. الحائط يحبسني، الحائط خلفي والشيطان أمامي. يتحول الشيطان إلى حسناء، قمر أحمر يدعوني إليه. شيطان الفقيه أقوى من شيطان المرأة. هي تهرب منه هو يطاردها. يحبسها الحائط. يلتحم الشيطان، صهيل مزدوج يعلو. شيطاني متقوقع، شيطان المرأة يتربص. قال الفقيه وهو يرتعد:

– إذا كنتما تحشمان أطفئا الشمعة.

أنا لم أشعلها لأطفئها. أطفأتها التي تقترب مني، ثم ارتمت لاهثة فوقي، فلففتها معي في المانطا. وتركنا الشياطين يلهثان خلف صهيل غامض. أنا لم أفعل شيئًا، لكن شيطانها الجائع التهم شيطاني، وأرغمه على الاستجابة والفعل طيلة الليل. كيف أفعل ذلك مع امرأة لا أعرف اسمها حتى. لكنني حفظت شكل جسدها في الظلام وهو ينقبض ويتمدد مثل أخطبوط. في الصباح لم أجد الأخطبوط. هل كنت أحلم؟؟ الفقيه استفاق مبكرًا، وأذن، ثم صلى بالناس. كم من وجه يملك هذا الرجل؟

جر من فوقي المانطا وهو يقول:

– سبحان الله يا وليدي.قم لتفطر. ثم اذهب لتبحث عن قصة "كطرينة" أظن أنك وجدتها البارحة. هل استمتعت؟ كيف وجدت طعم السمك البوري؟ ألم أقل لك إن لكل طعام بنته؟.

استيقظت محطم العظام. لقد امتصني الأخطبوط. ما تزال رائحة الحناء والعطر والورس عالقة بجسدي. أستلذ الآن طعمه. آه، كم هو الشيطان رجيم وليم!

قالت لي والظلام واللذة والخوف تحفنا.

– أشتم فيك رائحة البلاد. رائحة شجر العنب والتين والتبن والأرض لما تستقبل أولى زخات المطر، ورائحة صدر أمي الذي أستعيده من حين لحين...هل أصلك من "كطرينة"؟

همست في أذنها. قرط أذنها كبير وفيه رائحة عطر نفاذ، يهاجمني النوم والتعب، وأغالبه كي أتحاشى في حضرة الأنثى الضعف. الأنثى أقوى منا. تهزمنا بالرغم من أنوفنا. تظل تبلع فحولتنا دون أن تكل، فيما يسقط الفحل منهارا عند عتبة أول رعشة:

– فعلا، أصلي من كطرينة، وأنا أعد بحثًا أركيولوجيا حولها. هل يمكنك مساعدتي...؟

ابتسمت قبل أن تجيب:

– أنا لا أفهم في هذه الأشياء! لعلك تمزح.

ومررت يدها البضة على صدري المعشوشب. لكني كنت قد نمت.

الزاوية:

حكى لي الفقيه المختار أن بالقرب من القرية يوجد شريف، له زاوية يقصدها الناس للتبرك والاستشفاء من كل بقاع الوطن، ودعاني إلى زيارتها لإرواء مزيد من الفضول. قال لي إنه يزورها بانتظام مرة في كل شهر، وله علاقة جيدة بشريف الزاوي سيدي محمد السبيطي الذي ابتدأ حياته كخزاف، قبل أن يتحول في لحظة غضب شديد إلى شريف يعرف خبايا الجن ويحكمه. بل يعين للناس طبيعة المرض والوصفات اللائقة، والأطباء الذين تأتي على أيديهم العافية. كان أميًا لا يعرف القراءة والكتابة. يقصده الأساتذة والأميون والأطر العليا للجيش والأطباء، وشتى أصناف النساء، منهم من يقيم أياما وليالي ينتظر اللحظة التي تشرق فيها أنوار الشريف؛ فيجود بالحل السحري للمشكل القائم. يبدأ الرجل حضرته بعد صلاة العشاء ولا ينهيها إلا بحلول الفجر يوميًا، دون كلل. ويحضر حضرته هاته عشرات الناس يوميًا رجالا ونساء على اختلاف شرائحهم الاجتماعية والثقافية. يقول للناس، بعد انتهائه من طقس الحضرة، فألهم وأمراضهم ومطامحهم وعوائقهم وشفاءهم، دون أن يفرض على الناس تسعيرة مادية معينة. يدعي أنه يفعل ذلك في سبيل الله. يحكي لهم أنه في لحظة غضب وقف عليه سيدي أبو النور عبد الله المشترائي الدكالي، وألقى عليه عمامته. وقال له إذا دق بابك أحد من عباد الله فاقض حاجته. كان الفقيه

المختار يحكي ذلك في وقوف، وكأنه يحفزني علـــى زيارتـــه وحـــضور حضرته. قلت للمختار:

– هل يمكن لصاحب الزاوية أن يفيدني في قضية "كطرينة"؟

ضحك المختار بصوت عال، ثم قال:

– ها أنت تعود بنا من جديد إلى تفاهتك، في الزاويـــة يمكنـــك أن تتعرف على فتاة جميلة يصرعها الحب. فتكون هي "كطرينة" أنا أذهب كل شهر لأمتع نظري: البنات الكازاويات اللحيمات، النساء الناعمات المتحررات من سلطة الزوج اللائي يملكن سيارة وذهبًا وحليًا فـــاخرًا ومستوى ثقافيًا رفيعًا، وربما مناصب تتحلب لها الأفواه وتسيل لعابًا

استشطت غضبًا. لكنني كتمته.فالفقيه بالرغم من حماقاته وقهوره يعد سندًا لي هنا، وجدتني أقول له:

– يا أخي أنت لا شغل لك غير البطن والفرج.عيب وعار. أنت فقيه، وعليك أن تكون قدوة!!

قال ساخرًا:

– كن غير أنت قدوة. أنا أرد الدين، وأعلم ما علمونا.علمني الفقيه أن أكون دائم التهيج، طبيعة الكتاب نفسها تفرض ذلك. من الطلبة من ينكحه الفقيه مرارًا، وكأن النكاح شرط أساسي كـــي تـــتعلم بعـــض الأحرف. إذا أردت أن تحفظ جيدًا، وتنتقل بسرعة من حزب إلى حزب عليك أن تكون سخيًا في منح مؤخرتك للفقيه.

قلت متأثرًا:

أم فرح؟ أجدني أتبع هذا الآدمي المنتكس الذي يخفي كل هذه الجراح خلف بسماته وحيويته اللتين لا تنقضيان، أتبعه، وأنا أزداد خوفًا. من أدراني أنه يفكر في أذيتي أنا أيضا ما دام يحمل كل هذا الحجم من العدوانية.

فجأة لاح لي، في الظلام، ضوء خافت، تظهر في انعكاسه سيارات كثيرة واقفة، وأخرى تجيء لتوها من مكان بعيد.

انتظرنا طويلاً كي يبدأ الشيخ حضرته. دخن زميلي الفقيه كثيرًا من الكيف والسجائر. وحرق كثير من الوقت في "تقرقيب الناب" مع فتيات ونساء قدمن من مختلف الأرجاء محاولا استدراجهن صوب كمينه. وكنت أنا أتأمل هذه الطقوس وأقول في نفسي، لو كنت روائيًا أو قاصًا لأوحت لي هذه الليلة بتفاصيل مسرود لم يحضر على بال أحد من الكتاب: ها هنا تسقطك الحكاية رأسا على عقب. الزمن كله يتوقف ها هنا. قال لي الصديق وهو يمص "سبسيه" وينفخ الدخان في وجهي:

– الكثير من النساء هنا يأتين بحثا عن شفاء لرغباتهن التي لا تشبع بعد أن يقنعن أزواجهن بأنهن مسكونات من طرف جني أحمر يسكن جبل قاف أو جبال الهملايا أو مثلث برمودا، وأن لا طبيب يستطيع مداواتهن غير الشريف الذي يذل الجن، حيثما كانت جنسيته. تصور حكى لي هذا الشريف أن من الجن النصراني والمسيحي واليهودي والمسلم، ومنهم من يتكلم العربية أو العبرية أو الفرنسية أو الانجليزية أو الشلحة.

ومنهم الأخرس والفصيح. ومنهم الفحل ومنهم الخنثى. ومنهم الوسيم والذميم. ومنهم الشاذ والسوي.

لكن المشكل أننا نحن البشر لا نستطيع رؤيتهم مع أنهم يخالطوننا المأكل والمشرب. ومن الرجال من يخالطوه صحته وزوجته. أنت لا تعرف أن الجني يرى الإنسية الجميلة فيفتن بها، ويتزوجها عنوة، ثم يمارس معها الجنس بالرغم عنها وعن زوجها. لكن الشريف يحرقهم ويقطع دابرهم من الجسد الآدمي. لكن عيبه – مثلي أيضا– أنه يطلب الثمن من أجسادهن. تعجبه الواحدة من المريضات فيطرد منها الجن بعد مضاجعتها. كما أنه يشفي غليل من هن مريضات بالرغبة الجنسية بعد أن يقنع زوجها بضرورة بقائها بالزاوية مدة طويلة من الزمن. آنذاك تتمكن الزوجة من مضاجعة الشريف والراعي والفقيه والخضار، وكل من أعجبها من الزوار قلت في نفسي، كم هو سخيف هذا القاع، وكم هو مؤلم التفكير في مصائبه: الفقر العفن المرض...ومع ذلك يتهافت الناس على الرذيلة الحلوة، والخطيئة المبجلة، وعلى اقتناص اللحظات لطعن الآخرين من الخلف، وامتطاء صهوات شرفهم، والتلذذ على حساب كراماتهم.

دخل الشريف مثل الطاووس يجتر جلاليبه، وتتبعه رائحة عطر نفاذ. معه امرأة ورجل يحمل مبخرة يتصاعد منها الدخان. كانت العيون تتطلع إليه باستغراب مثلما لو كان القديس أوغسطين يحمل معه صكوك الغفران. جلس في الوسط على جلد خروف "هيدورة" وبدأ

يردد بصوت مؤثر كلامًا غامضًا يشبه المديح، معددًا حبات سبحته البيضاء. وكان الحضور يردد معه الهيللة تحت تحميس أحد مريديه الذي كان يصول وسط الساحة مستفزًا الناس على الصراخ، معاتبًا الساكتين أو المتكاسلين بنظرات حانقة.

سخنت القاعة بمن فيها وضاقت، وبحت الحناجر بالتهليل، وفي ظل هذا التصعيد النفسي المشوب بالخوف والترقب يغمى على الكثير من النساء والرجال. تصرخ امرأة هنا، ويسقط رجل هناك. تكثر الضحايا وسط الصراخ والعويل والندب. فيقف الشيخ مزهوًا، ويقصد الساقطين والمغمى عليهم. يضع السبحة على جبينهم، ثم يتمتم بكلمات غامضة، فيقف الساقط ببركة الشيخ.

عند نهاية الحضرة، يدعو الشيخ الحضور إلى الصمت والإنصات، ويذكر أسماء من مروا أمامه أثناء الحضرة وأسماء أمهاتهم والمناطق التي حلوا منها، وأمراضهم وأعراضها، وأسماء الجنيين الذين يسكنوهم مع ذكر السبب وتاريخ المس، والدواء الصالح واسم الطبيب الذي على المريض عيادته إذا كان المرض عضويًا، وبعض الأدوية الشعبية المواتية. كل ذلك يتلوه الشيخ بسرعة وبدون تردد. منبهًا الحضور إلى أنه بمجرد خروجه من هذه اللحظة لن يذكر شيئًا لمرضاه. وبعد الانتهاء، يأتي رجال بقصاعي الكسكس وبراد يصب الشاي للحاضرين. دون أن أنسى أن الحضرة تخللتها بعض اللقطات. مثل عجن الشيخ للزجاج. وشربه للماء المغلي، وإشعاله النار من بين كفيه. يجلس الشيخ في وسط

القاعة في مكانه المعهود، فتجتمع حوله النساء الجميلات الممتلئات يعطينه "الفتوح" نقدًا، ويقبلن يديه، يوشوش صديقي في أذني:

"شوف، شوف آوليدي الزين. شوف مولات الكحل... سعدات هذا الشريف، امبرع مع راسو، كن كنت في بلاصتو وهلي... كنفكر من هنا القدام نفتح شي زاوية باش نتبرع"

حبست ضحكة راودتني. وبت أتأمل عيني صديقي وهما تحطان بنظرات ملتذة على "مولات الكحل" التي يكاد نهداها يفيضان خارج القميص، وشعرها الأسود الطويل يغطي ظهرها ويحط على رجلي الشيخ الضائع بين فتن نسائية تتربص به.

وشوش قبل مغادرتنا، صديقي الفقيه في أذن الشيخ. ويبدو أن بينهما تواطؤ حول الجسد الأنثوي المتربص، وذاك فعلا، ما تأكد لي بعد أن أوصلني الفقيه إلى المنزل، ثم غادر. أكيد كانا في الليل يقتسمان الغنائم بعد أن يطرد الجني من الجسد الأنثوي. غريب هذا الأمر. يخرج جني الجن، ثم يعوضه جني الإنس، لست أدري أيهما أسوأ؟ المهم أن قدر الجسد تعس، لأن أنوثته تجعله عرضة لهش كل أنواع الجنون.

موت عباس

استيقظت ذات صباح، على لغط مفزع ومؤثر. بحثت عن الفقيه فلم أجده. خرجت أستطلع الموقف، فإذا بأسراب الناس تتجه نحو منزل عباس، مات عباس، أواه، الرجل الذي جئت من أجل السماع عنه تخلى عني هو الآخر، ولم يضيء لي ظلمة السر. رأيت في موت عباس موتا ثانيًا لوالدي. كنت أسير خلف نعشه، وأبكي داخليًا، قال لي في آخر مرة رأيته فيها:

– كم كنت أتمنى أن أراك قبل أن أموت. فقد ذكرتني بوجه العزيز الكريش. لقد اشتقت إليه كثيرًا، الله يسهل عليك ما صعب يا ولدي.

تحدثنا كثيرًا وشربنا الشاي، وحدثني عن طفولة والدي، لكن ذاكرته كانت متعبة جدًا، ولم أفلح في أن آخذ منه كل ما أريد عن "كطرينة"

بكت النساء وهلل الرجال مبهوتين. فقد كان عباس رجل توازنات: يصلح ذات البين، وينهي عن المنكر، ويمتص غضب المتخاصمين، ويطفئ نار الفتنة. لذلك رأوا في موته، موت أكثر من رجل.

كنت أنظر إليه في بياض الكفن، وهم يرمونه في حفرة القبر الرهيبة، متحسرًا على مصيرنا جميعًا. كم هو شقي هذا الإنسان. ذاكرة برمتها، وكتلة أحاسيس، وعمر من المواقف، وتاريخ من العلاقات والسلوكات. يتحول في لحظة إلى جثة هامدة، نتنة، يهرب منها الكل، ولا يقبلها سوى التراب. حفرة تختصر حياة برمتها، حفرة ضيقة، وثوب رقيق،

وكمشة[٨] من الأعشاب وماء ورد، ودعوات سريعة، هذا ما تبقى من عباس، وما يتبقى منا بعده، هو السابق ونحن اللاحقون.

كان الفقيه يرتل القرآن ويدعو له، وقلت في نفسي كيف لا يستحضر هذا الرجل مثل هذه المواقف العصيبة وينتهي عن أفعاله الشنيعة؟ إذا لم يرهب الآدمي من لحظة الموت، خاصة إذا كان هو من يضع الكفن، ويغسل الميت، ويقرأ على قبره، ويدعو له. فما الذي سيرهبه إذا؟

في الليل تحول عباس إلى قصاعي كسكس وقوالب من السكر وأكياس من دقيق وكلام وحكايات وماض من خبر كان. غابت الصورة، ولم يبق إلا أطياف تجول المخيلات والمذكرات العاجزة. لكن عباس، في نظري، بكل ما عرفت عنه ومنه، يظل ذاكرة منسية وتاريخا غير مدون: تفاصيل من الخيبات، ومواقف مخزية من الصبر والصمود، ونكوص إرادة.

بموت عباس تكسر أكبر جناح يمكن أن أطير فوقه لبلوغ سر "كطرينة" لذلك تأثرت مثلما لم يتأثر أحد، وأحسست بفظاعة الموت لأول مرة. حينما مات أبي لم أكن ناضجا بما فيه "الكفاية"، وظللت أرقب المشهد مرتبكًا مدهوشًا، مأخوذًا بقلق اللحظة وتعذرها على الفهم. أما الآن، فقد شهدت الموت المارد، وهو يحز رقبة عباس ومعها حكاية "كطرينة" التي طمرت معه في القبر. مشكلة الموت أنك لا تعرف مصيرك بعد أن تغادر الروح الجسد، وتطرح الجثة في الحفرة. لا أحد

---

[٨]- حفنة من الأعواد.

يستطيع أن يحكي ما يجري: هناك عالم رهيب ينتظر دون شك، ووقت عصيب يتأبى على التصور. فحتى الكتب السماوية لم تفصل في الأمـــر، تركت الأمر غامضًا وملتبسًا ليزداد تعقد الأمور. ما تقولـــه هـــو ألا نسأل عن أشياء إن تبد لنا تسؤنا.

مات عباس وماتت معه حكاية "كطرينة" ظل لها التباس الموت نفسه.

اعتقال الشريف

لم يتح لي أن أعرف الشريف جيدًا، ولا طقوسه. لكني عرفت عنه أشياء من خلال الفقيه: ومنها أنه يستدرج بعض الجميلات من زائراته إلى الفراش، وينكحهن خلسة من زوجته في الزاوية مقابل طرد العفريت الذي يسكنهن. وأحيانا هن من تستدرجنه ليشفي عفريتا يسكن أسفلهن، ويطفئ نارًا تستعر بداخلهن مثل البركان.

في الغد، لما كنا معا، أنا والفقيه نحتسي قهوة بمقهى الرياض، ونقرأ الجرائد في مركز قرية أولاد فرج، صادفنا المقالة التالية من القلب إلى القلب في جريدة تفتح ملحقا لنداء الجسد.

اغتصبني "الشريف" في الزاوية!

بعدما نفد صبري قررت أن أكاتبكم لعلنا نصل إلى حل لمشكلة ستبدو لكم بسيطة، ولكنها على العكس من ذلك تماما، وسأحاول سردها لأبين لكم أن بطلها رجل دين متق ورع، لكنه في الحقيقة يتظاهر بذلك، فهو يقيم حضرته أي "الجذبة" وهي القيام ليلا بأذكار وأمداح نبوية ليكسب ثقة الناس به، لكن ما يحدث على أرض الواقع هو عكس ما تتوقعون، فهو يجلب أنظار زبوناته الفتيات والنساء المتزوجات أو المطلقات، ولا يفرق بين قبيحة الوجه أو حسنة الوجه بالرغم من أنه متزوج ولديه عشيقة يعرفها الجميع.

مشكلتي بدأت في صيف ٢٠٠١م، لما اكتشفت أني مريضة بمرض يدعى "الصرع"، وأكد لي أحد زملائي أنه يوجد شخص في منطقة دكالة "يحكم" هذا المرض، وقد تشوقت حينها لرؤية "الزاوية" التي يدخلها المرضى، وكانت أول ليلة شاهدت فيها ذلك الجو المشحون بأمداح نبوية تقشعر الأجسام عند سماعها، مما زاد في ثقتي به لأنني اعتقدت أنه يشفي الناس بطريقة ربانية كما يقول، وردد دائما جملة أنا ما فقيه، ما شواف. هاذي غير حكمة ربانية، واطلب من الله يداويك وأجري على الله، لكن بعد مرور تلك الليلة استيقظ في الصباح وقال لي: "ابقي معي هنا لأن المكان قيدك، يعني "الزاوية شداتك"، مع العلم أنني ما زلت شابة، وكان متلهفًا لمجيئي للمرة الثانية، حيث اتصل بي مرات عديدة وطلب مني أن ألقاه، وأبيت، بحجة أنني سآتي في آخر الأسبوع.وجاء اليوم المشئوم، وليتني لم أذهب إلى تلك الزاوية! لقد فرح بمجيئي وأخبرني أنه مشتاق إليّ. لكني رفضت تصديق كلامه لأني أشمئز منه. فهو متزوج ولديه أطفال، وكذا غير "مثقف" و"بلدي" رغم امتلاكه النقود والسيارة والسلطة. ولما انتهى تلك الليلة من الحضرة التي يقوم بها يوميًا من التاسعة ليلاً إلى الرابعة صباحًا. طلب أن يتحدث معي ، وأنه يريد أن يقول أشياء كثيرة تخص مرضي، لكني خشيت أن انجرف وراءه. وفي تلك الليلة الثانية أكد لي وأقسم أنه ما زال أمامه وقت لكي يراني أتعذب في ملاحقته بمجرد أن "يعزم" على "جني" أو

"خادم" عنده ليلمسني نسمة من ريحه، وسيفعل بي ما يشاء وأنا مطأطئة الرأس!

وفي صباح الليلة التالية، بعد نهاية الحضرة، استلقيت على الفراش بجانب العديد من النساء المريضات، فظهر لي شخص كأنه الشريف بلباسه الذي رأيته به وهو يناديني باسمي قائلا: "تعالي، تعالي أنا أنتظرك في الخارج" وأقسم أني سمعت حركة حذائه قرب النافذة التي كنت مستلقية بجانبها، ولم أنم تلك الليلة. وفي الصباح الباكر قمت لكي أرجع إلى مدينتي، فسألني بماذا أحسست تجاهي؟ فأجبته قائلة إنني مرتاحة له وإنني رأيته أثناء استلقائي على الفراش، فضحك مستهترًا كأنه لا يعير اهتمامًا لما رأيته ولما قلته، وبعد ذلك استفسرني قائلا: لماذا قمت باكرًا؟ أجبته بأنني أريد الذهاب، فضحك وأجابني بأنني لن أذهب حتى تطلق الزاوية سراحي! واستغربت لهذا الأمر، وأكد لي بعدها أن شيئًا يربطني به. ونجح أخيرًا في أن ينال ما أراده مني في تلك الليلة بلا مقاومة. وقبل ذلك أحسست برعشة في جميع أطراف جسدي وكأني مكهربة وعقلي مخدر.

تخيلوا أعزائي، أنني بعد ذلك، بكيت طويلا، وأحسست بالندم كأنني لم أكن مقتنعة بما قمت به. وذلك لأنني لم أفعل في حياتي مثل هذه الأشياء، رغم أنني كنت أحب شابا يحبني وكانت علاقتنا طاهرة إلى حد ما. وعندما تدنست مع هذا الشخص الذي تظاهر بالتقوى.صرت نجسة وكتمت سري، ومن ثم أصبح يعاملني كأنه لم يعرفني، وكشفت حينها

بصعوبة وبذكاء أن كل من حوله من الفتيات والشابات والنساء صرن لعبة في يدي العفريت الذي أصبح يلعب بهن كالخاتم في أصبعه.

تخيلوا بعد انقطاعي عن الذهاب إلى الزاوية أصبح يطاردني بأشباح يخيفونني أثناء نومي.

وأقسم بالله العلي العظيم بأنني في كامل قواي العقلية، ولولا ضيق الوقت والإطالة في الكتابة لكنت ملأت أوراق الجريدة كلها وأنا أحكي ما حصل لي، لقد تجرعت عذابي لوحدي، وتأكدوا أنها ليست أوهامًا، بل هي حقيقة عشتها، وإن لم تدركوا الأمر، فلقد ذاع صيته في منطقة عبدة حيث يقطن. وبدأت شهرته تنتشر في سائر أنحاء المغرب من طنجة إلى الصحراء، وذلك بعد ست سنوات من الخدمة في الزاوية.

إخواني، أخواتي قراء صفحة من "القلب إلى القلب"، هذه مشكلتي التي ليس لها حل لأني لم أجد من ينصحني، ولكن المجتمع يمكنه أن يساعدني للخروج من هذه القوقعة المشؤومة، وشكرا لكم.

– زنوبة المغربية–

بت واجما فيما كان صديقي الفقيه يستلقي على ظهره من الضحك، ويقول:

– "يديرها العفريت ويكد بها"

كانت غيوم عليا تتحرك في السماء، وفوقها بمسافات كانت تحلق أسراب من الغربان واللقالق والخطاطيف. كانت هذه تباشير تنذر بعاصفة محتملة. وظل هذا الإحساس يؤجج شعورًا بأن شيئا ما سيحدث

في هذه القرية: في الصفحة الأولى من الجريدة هناك إخبـــار بارتفـــاع الأسعار في المواد الغذائية، وهناك احتجاجات في صفرو وفاس وغيرها تقمع بأجهزة الأمن. أما النقابات ومؤسسات المجتمع المدني فقد أقبرت ونامت من زمان. هكذا ظل المواطن عاريًا أمام أشواط ملتهبة توجهها عولمة مجنونة ومادية مسعورة. الغرب الوحيد المستفيد من هذا التوجـــه المستهتر، متلذذًا يراقب آلام الشعوب التي يوقد نار مأساتها بكلتا يديه

في الغد جاء رجال الدرك بأمر من الوكيل، واعتقلـــوا الـــشريف، ثم هدموا زاويته، واستنطقوا الناس الذين وجدوهم لديه فضلا عن أهـــل القبيلة المجاورين، ولم يفلت صاحبنا الفقيه، وربما غدًا يأتون إليّ. فقـــد يثيرهم تواجدي هنا فيضطرون للتحقيق معي.

الحلم

في مساء اليوم نفسه التقيت بالفقيه وقد أطلق سراحه. كان يقهقـــه، قائلا

– تركتك وحدك يا رجل تزأر في عريني. هل زارتك إحداهن؟

نظرت إليه شزرا، وقلت:

– على سلامتك، البلدة خاوية بدونك.

فرد متابعا حماقاته:

– الليلة تسرج أفراسنا، لقد اشتقت للتبوريدة، كأنني سجنت عامًا يا رجل!!

اشترينا من السوق خضرًا ولحمًا وفواكه، وركبنا السيارة وتوجهنا إلى الدوار. كان الفقيه يثرثر غير عابئ بما حدث له. غريب أمرهم هـــؤلاء البدو: لا يمنحون قيمة لما يحدث. يعيشونه كما لو كان قدرًا عـــابرًا. لا يدورون الأمور في رؤوسهم، بل بمجرد ما تحدث ينسونها إلى الأبد. وقد يكررون نفس الأخطاء مع تفاهتها. لم يكن يتحدث إلا عن شيء واحد الطاجين بمعنييه: العشاء والجسد المحتمل. تلك الليلة لا أعلم كيـــف، عندما بدأت رائحة الطاجين تفوح لذيذة، تسللت فاكهتان أنثويتـــان ملتحفتين أردية سوداء تسترهما في الليل. متزوجتان على مـــا يبـــدو، حديثتا العهد بعش الزوجية. وزوجاهما بكل تأكيد يعيـــشان بعيـــدان عنهما. فكان يغلبهما نداء الجسد، فيأتيان إلى الفقيه. هذا الذي يعمـــل

كل شيء في الدوار: يعلم الصبيان ويصلح ذات البين، يشهد على الزواج والطلاق، وأحيانا يكون سببا فيه، يغسل الموتى ويقرأ على أرواحهم المسافرة. ينكح النساء الجائعات، ويقنبل أرحام العواقر بأطفال لا سلالة لهم.

أشعل المختار الحاكي: الفنان الشعبي الستاتي عبد العزيز يصدح بأغنية "وراه كينة ظروف: حكمت عليها الظروف..."، فرمت الفتاتان الملحفين، وأطلقتا العنان لجسديهما كي يرقصا ويبرزا مفاتنهما: الجسد أفعى تلتوي، يرمي سم الشهوة في خلايا الضحايا فتسكر. جسدان رفيعان، توت بلدي يكشف ذاته، لا زواق ولا نفاق: اللون الخمري الذي يستمد من الشمس الطليقة، والشعر الأسود الكثيف يسدل إلى جنوب الخصر، والمفاتن الحساسة تتحرك بطلاقة دونما ثقل: جبل من الشهوات يفجر بركانه، تلان يفصلهما شق، وفي الشق تشتعل المتاهة. يستمر الجسدان في رقصتهما الشيطانية المصحوبة بنظرات أعين تدوي فيهما الرغبة الجامحة إلى وقت متأخر من الليل، حينها تاق الجسد للجسد وأزفت ساعة الخلاص. تحولت ساحة البيت الصغير إلى حلبة عراك شهواني. يشتبك الجسد بالجسد، والشهوة بالشهوة وسط مراغة وحشية غريبة ما عهدتها في إنسان. قلت أللرغبة كل هذا الجنون؟!، أصوات غريبة تئن، تضيع في الظلام، وصوت العراك يفزع حشرات الليل، في الداخل تختلط روائح الحناء والورد والريحان والعطور البلدية روائح غريبة. يظل جسد الأنثى ينادي طالبًا المزيد، ويتحول جسد

الرجل إلى بركان تلتهب فيه لافا الشهوة لتروي عطش الأنثى، ليل الرغبة يطوى سريعًا ولا يتذكر الجسد الذكوري سوى رائحة قرينه الذي يختفي قبل انبلاج الصبح القريب.

تواعدنا أنا والفقيه السوسي و"الزوهري" (في كفه خط متصل) على اللقاء في مقهى المنظر الجميل على التاسعة ليلاً. ومن ثم ننطلق صوب مكان الكتر "كطرينة" أو مكان السدرة العتيقة التي أشار إليها الحلم وعززه الفقيه السوسي بخريطة الكنوز التي لا يقرأها سوى حافظ الدمياطية. شربنا كؤوس القهوة مسرعين، ثم انطلقنا وسط عاصفة من الظلام والخوف (مد يدك تقطع). وكلما اقتربنا من المكان كانت دائرة الخوف تشتد، ويزداد نبض قلوبنا وارتجاف أطرافنا. "كطرينة" الآن ساكنة مثل مقبرة بائدة تحوم حولها أرواح الجن والصوفية والأموات الذين عبروا هذا المكان المقدس. وبدأ الندم يتسلل مع الخوف إلى نفسي، وقلت: يا ليتني بقيت مع المختار أستمتع معه بالطاجين والنساء الساخنات والنوم العميق. الآن، وسط أعاصير الخوف، أتلمظ حلاوة مجلس المختار، وروعة بيته الدافئ برائحة الطاجين وسخونة الفتيات والنساء القادمات من أفرشة باردة في ليل القبيلة.

نزل الفقيه السوسي بخطوات ثابتة، ثم توجه نحو المكان المقصود. تراءى لي يحملق بوجهه الصغير وجسمه القصير الممتلئ بسبب كثرة "الزرود" في الفراغ، والظلام يحفه من كل جانب، ويكاد يحجبه عنا، فيما ظللنا نحت تراقب ما يجري من أماكننا بالسيارة أنا والزوهري،

وكأننا ننتظر من الفقيه أن يمهد لنا الطريق، ويزيح الخوف والشياطين من المكان. كان الفقيه يفتش عن مكان ما ويقرأ القرآن. فيما يداه توزعان شيئًا ما في الفراغ. تحولن الحبيبات التي ينثرها الفقيه في المكان إلى جمرات تنط لتتجمع في نقطة واحدة، أشار إلينا الفقيه بالنزول، ووضع إبهامه على فمه دلالة على الصمت، وانطلاق طقوس انتزاع الكتر من شياطين المكان وحراسه. نزلنا من السيارة حذرين. وحمل الزوهري الفأس، فيما كنتُ أنا أكتفي بالنظر أما الفقيه فكان يقرأ تعازيمه بصوت خفيض مفرقعًا قرب النقطة التي باتت تشع نارًا.

أزال الزوهري جلبابه ووضعه غير بعيد منه، ثم بدأ يحفر فوق النقطة المشتعلة. ومع الضربة الأولى للفأس تحولت الحبات المشتعلة إلى كتاكيت تكركر في وجوهنا بصوت مزعج، ازداد نبض قلوبنا، فيما كان الفقيه ينظر إلينا محرضًا على الثبات، وكنا معا نرقص على الأرض جفافا من الخوف، كأننا نسير نحو حتوفهما. ظلت الكتاكيت تحملق في وجوهنا، ثم اختفت فجأة. وما إن سرى الاطمئنان في قلوبنا حتى برزت مع ضربة الفأس شعلة من النار تحولت إلى ثعابين ضخمة تهاجمنا على حين غرة، ارتعدت فرائصنا، وظل الفقيه ثابتًا يرتل عزائمه بصوت مسموع، كأنه يحثنا على عدم الاكتراث. كنا نبلع الخوف والمرارة على مضض، ونستمد عزيمتنا من عزيمة الفقيه المقرفص جنب الحفرة مباشرة محدقا فيها يبحث عن شيء ما. اختفت الثعابين، واشتعلت فيها النار بعد أن انتصر عليها الفقيه بتعازيمه، ولم يدم هدوؤنا إلا دقيقة، حيث ظهرت

امرأة سوداء، ثدياها يجرجران في الأرض، عارية ترقص فوق لهيب النار غير عابئة بالحر والألم، وكأنها امرأة خرافية...

مرت لحظة صمت لم يظهر خلالها شيء، وضرب الزوهري ضربة قوية، فاهتز صندوق كبير وأعاد الضربة فانفتح، وظهرت القطع الذهبية تتلألأ مثل أشعة الشمس، فهلل الزوهري مستشيرًا، فانقطع لسان الفقيه واشتعلت فيه النيران، وسقط الزوهري على وجهه في الحفرة، وغبت كأنما رفعني جني ورماني في الهواء والظلام، فاستفقت، وإذا بي في أرض لم أعرفها، فسألت أهلها، فقالوا لي: هذه الشعيبات وتبعد عن "كطرينة" بأربعين كيلومترًا.

كنت حافي القدمين، مهروس الجسم، أحس برضوض مبعثرة في جسدي، ولمحت بقعًا حمراء في جلدي، ولما استقمت واقفا دارت بي الدنيا، وغمرني دوار عميق، تقيأت، ثم سرت قاصدًا أي مكان آخر إلا كطرينة.

كنت أمشي مغشيًا علي، أرى الحقائق مقلوبة، لا وعيي هو من يحكم. لم أعد أعرف الأمكنة والأزمنة. أسير على غير هدى، وأعيش كما اتفق. مجنونًا أصبحت. سكنني الجن الذي كان يحرس الكنز. الجن الذي صارعه عبد الرحمن المجذوب حول حكمة الرأس. لقد انتقم من جدي في حضرته الذي هو أنا.

ساح بي العفريت. لا أعرف اسمه. قادني إلى المقابر والأضرحة، وأنساني كطرينة والجامعة والطلبة وركاما من البحوث. هذا ما جنـــاه علـــي والدي.

"ربيعة" في الحكومة

استغل الشواذ وضعية حقوق الإنسان، وأسسوا جمعية حماية حقوق الشاذ جنسيًا من النبذ والتهميش المجتمعي. ووضعوا قضية حقوق الشاذ في أن يعيش حياته مثل الآخرين، يقصدون مثل النساء. وترأس "عماد" بحكم موقعه الاجتماعي الجمعية التي خولت له أن يدخل حزبًا سياسيًا وأن ينجح في الانتخابات البرلمانية، ويلج بوابة الحكومة من بابها الواسع. ومنذ ذاك الوقت صار للشواذ حق التزاوج والتمتع بالحياة علانية ودون تكتم.

بفضل هذه الجمعية، لم يعد هناك فرق بين الرجل والمرأة، صار للمثلية مكان في التداول الرسمي، ولم يعد هناك من يقدر على الجهر بكون ذلك منكرًا مخافة أن يتهم بالإرهاب. كل من دعا لإصلاح القيم وحفظ الحياء والأخلاق، أصبح يتهم بكونه رجعيًا ويستغل الدين من أجل أغراض سياسية. أصبحت شريعة الجسد وحدها تحكم: الرجل ينكح ما يشاء من نساء، وإن عجز يمنح نفسه للآخرين. تلك شريعة أبي نواس تتحقق في القرن العشرين: تداولت قصاصات الأنباء في الجرائد عن تزاوج شواذ ذكور وإناث في سيدي علي بن حمدوش ومولاي بوشعيب الرداد ولالة عائشة البحرية وبن يفو. تناكحوا مثنى وثلاث ورباع، وابتدعوا في فن النكاح ألوانا، جعلوه همهم اليومي، ولم يكتفوا بذلك، بل أقاموا الأعراس لفضح شذوذهم. ما همهم استنكار الناس أو

تواطؤهم، همهم إطفاء الرغبة الشاذة التي تستعر بداخلهم مثل نار أكول... في هذا المحيط العكر كان ينتعش عماد وتتضخم ثروته، ويكبر نفوذه. هي الدنيا هكذا، فاجرة وسخيفة، تحب القذرين مثلها، تغرهم وتفتنهم عن طريق الحقيقة. الدنيا كلبة تعشق الكلاب لأنهم يلعقون برازها ظنا منهم أنه نور. فيما هو ليس سوى وهم!

سميت الحكومة المنتخبة حديثا بـ"حكومة ربيعية"، وكان أول ما قامت به أن حررت العاهرات ودافعت عن الشواذ، وكثر النجس والمنكر وامتلأت الشوارع بالرغبات التي تسير في كل الطوارات. وبدل أن تحرر القيم الجميلة أقبرتها إلى الأبد.

لم يسأل "عماد" عن أسرته، ولا عن أخيه الذي أقبر في مارستان بويا عمر، وانتقل منه إلى برشيد وحيدًا مع جنونه وحلم "كطرينة" الذي أزهق لبه. كان مشغولاً بتثبيت موقع الطائفة التي ينتمي إليها، خوفًا من أن يعود إلى الأسفل فلا يجد من يحتضنه. بئس الحكومة التي يقودها شاذ يمنح مؤخرته لمن هب ودب كي يرضي نعرة تسكنه في الأسفل.

كثرت جمعيات النساء العاهرات، والنساء القوادات والأمهات العازبات والرجال الشواذ والسحاقيات واللواطين. وبالمقابل تفككت الأحزاب التقدمية والنقابات،وبدل تشجيع المواهب والفكر والإبداع، توجهت إرادة الحكومة الشاذة إلى التحريض على العري والإباحية والسياحة الجنسية، حيث حملت شعار "جوع كرشك وشبع تحتك" والنتيجة أن كثرت الفواحش "بالعلالي" وتعاظم الفقر وتفشى في الناس

مثل الطاعون فنخر عظامهم وأنهكهم حتى إنك ترى الواحد يمشي وهو هيكل عظمي ليس إلا، ومع ذلك تراهم مصرين على ممارسة الجنس الرخيص في المواخير التي أصبحت مثل الدكاكين، وحتى في الطرقات وشرفات المنازل. في الصباح عندما تخرج من منزلك تتعثر بالعوازل الطبية المستعملة، وحينما تدعسها عن غير وعي منك يفرنقع منها القيح والمني ودود الرغبة الذي لا ينتهي. المتزوجون هم الآخرون استلذوا طعم العاهرات وهن يقفن على الطرقات يعرضن أنوثتهن ببطون ومؤخرات شبه عارية. الشواذ من الرجال هم الآخرون يعرضون بضاعتهم وأعضاءهم الجنسية في أسواق الجنس بالليل والنهار، ومنهم من وضع رهن إشارة الناس مواقع وعلب إلكترونية عبر شبكة الانترنيت يعرض فيها أعضاءه الحساسة ليستدرجهم إلى فخ الإثارة الجنسية، معززًا إياها بعناوينه وهواتفه الشخصية. بدل أن تحرر هذه الحكومة الخصية التعبير والقيم الرفيعة، حررت الجسد والرغبات والعقد الجنسية من العقال تحت ذريعة وشعار التحرر والانطلاق ونبذ الكبت.

رحلة البحث عن العقل المفقود

كانت أول عتبة طرقها المجنون "ولد الكريش" هي قرية سيدي مسعود بن الحسين "رداد العقول الطائشين" ذلك الذي تأتيه الضحايا فرائس، ثم تعود منه عرائس. في خلواته تتداوى بلا أدوية عشرات الحمقى والحمقاوات من خبلهم، ويعودون مع عائلاتهم في نهاية الأسبوع. تغيرت ملامح ولد القريش، اتسخت ملابسه وغادرت عيناه من التعب (سار حوالي ثلاثين كيلومترا على رجلين حافيتين) والجوع (لم يأكل منذ تلك الليلة السوداء). وكان شعره معفرًا بالغبار والتبن ومنظره مخيفا للغاية.

حط بالصدفة في قريته التي هرب منها أبوه منذ خمسين سنة أو يزيد من بطش الاستعمار، وعاد إليها هو ليرهق عقله وراء حلم مجنون. كانت أحواله تقوده إلى القبة الخضراء. دخلها ثم أجهش في نوبة بكاء شديدة، تحلق حوله الناس والزوار، أرادوا معرفة السبب، لكنه كان منشغلا بعوالمه الرهيبة، مقعيًا، خائبًا، مثل ناسك ارتكب خطيئة كبرى.

لبث في الضريح مدة، وكلما هاجمته النوبة، بكى مثلما اتفق حتى تختلط دموعه بمخاطه فتملآن صدره وسائر جسده. أصبحت رائحته كريهة، صنان وذباب، وقمل، وبرغوث، عفن، ووسخ، وبول، وغائط...المأساة كلها اجتمعت هنا. وكان طيلة الوقت صامتًا، حتى في لحظات الصفاء لا يحاول أن يكلم أحدًا. ينظر إلى السقف ويتأمل مبهوتًا

في عالم من عدم. كان بعض الزوار وحتى المشرفين على الضريح من حفدة السيد ومن الأدعياء الذين يسترزقون من هذا المكان يحاولون دفعه إلى الكلام، لكن دون جدوى.

أدخلوه خلوة الكرمة، وتركوه هناك، ذهب بهاء وجهه وبرزت عظام هيكله العظمي. وكان كلما أتى الأطفال ليطلوا عليه في الخلوة يزأر في وجوههم بصوت غريب، فيعودوا ويرمونه بالروث والحجر والبراز، دفنوه حيًا في قبر يبلغ عمقه سبعة أمتار، يظل على الجوع والعطش حتى يأتي من ينقذه من الزوار بكسرة خبز أو سيجارة.

"ما هذه بحياة" كلمة يقولها كل من يتردد على القبة زائرا: الحفرة عميقة وباردة، ونتنة، براز، بول، قيء... لا تظهر منها الشمس ولا تطل على زرقة السماء. أي استشفاء هذا الذي يدفعون إليه، موت في الحياة. يدفن الرجل حيًا في قبر لا قيمة فيه لإنسان والغريب أن المريض أحيانًا يأتي من تلقاء نفسه، والأغرب من ذلك أنه قد يشفى بعد مدة ويعود إلى رشده، ويعيش حياته الطبيعية، ويستعيد قوته، ترى الجنون يروض بهذه الطريقة؟؟

يفسر بعض الذين يشرفون على خلوات المساجين بطقوس كلها روحانية، يقولون بإن الجني يسكن الآدمي ويسحق عقله، ويجعله مخبولا، وقد يتزوجه أحيانًا؛ فتكون لحظة جماعه به هي حالة الصرع التي يدخلها المريض. ولأن للولي الصالح هيبة لدى العفاريت والجنون، فإن المريض ينفعل مع هذه الأمور، وبالتالي يجد طريقة إلى الشفاء بمجرد إقامته في

الضريح، لأن الجني يهاب هذه البقاع التي تسكنها روح الولي الصالح، فتطرد الأرواح الشريرة من أي جسد يحتمي بها ويستجير بتربتها المباركة. الغريب أيضًا أن المخبول هو الآخر يصبح له ميل عميق لهذه الطقوس، ورغبة جارفة في زيارة كل أضرحة العالم. إذ يجد فيها راحة مثالية. يدخل "ولد القريش" قبة الولي "بويا عمر" في بهوت: الجسد النحيل يرتعش، العينان زائغتان، الأنفاس متهدجة، يضيع في الزحام. نساء شابات في مقتبل العمر، شباب في عمر الزهور يطوفون بالتابوت، زئير، صراخ، لغط،، خوف، بصاق متطاير، ارتجاف يتصاعد في الجسد والروح، لا تناغم في الفكر ولا في الحركة.

يتحرك ولد كريش ببطء يتبع الأجساد التي يغلي فيها الحال، رويدًا رويدًا يبدأ في الإسراع، تدور الدنيا في عينيه. الرؤية ثقب في الدماغ، شيء ما يصعد الجسد مثل نار أكول، حرارة تلهب الصرة والأحشاء وتصعد إلى الرئتين، عاصفة من البكاء والعويل والزفير تطبق على العنق والحنجرة، أي موت هذا؟! أية حال هاته تحمي وطيسها في الجسد الواهن؟! يرمي ملابسه، يبقى عاريًا، يشكو. "أبويا عمر احرقني ميمون، شواتني السعدية، كواوني أعمر، شوف من حالي أعمر، أمول الخلوة! عممم عمممممم" ثم في آخر تهيج لأنفاسه يصطدم بالجدار ويسقط مغمى عليه، لا يلوي على شيء، ولا حركة غير صعود النفس وهبوطها. يستفيق من غيبوبته، يجد نفسه عائمًا بالعرق، لكن بالرغم من الراحة المؤقتة، يظل دماغه شاردًا، ويعود ذهنه إلى المتاهة نفسها: رجل يعيش خارج العقل، خارج العالم. إنه لا يفكر حتى في الوجهة التي سيتخذها غدًا.

من مذكرات راوي الرواة:

قضى راوي الرواة مدة طويلة في الأضرحة والزوايا يتتبع أخبار الأستاذ لما استبد به سعر الجنون، وساح في بلاد الله الواسعة بحثًا عن العقل المنفلت... ولما كانت الإقامة في هكذا أجواء مضنية ومملة وتشعر بالجنون نفسه، فقد انشغل الراوي، درءًا لهذه الضغوطات والمشاعر، بكتابة يوميات بعض الحماق الذين سمع عنهم أو شاهدهم. وتعميمًا للفائدة رأى الكاتب الضمني، بعد استئذان من الراوي، أن يدرج هذه المذكرات لأهميتها الكبرى في إضاءة النص، وكشف جوانب معتمة من المحيط الذي تعيش فيه الشخصيات. وقد فضل الكاتب تركها على الهيئة التي دونت بها دون تدخل أو حذف أو تعديل.

١-"الطار وعلا" في السماء كيتعلى:

عشق غريب للفلاحة ومعاشرة طريفة للناي

اسمه الحقيقي (مبارك)، لقبه أهل قبيلته بالطار وعلا نظرًا للسرعة التي كان يتحرك بها لوحده بنرفزة واضحة، يترجل الطريق يوميًا إلى الفيلاج قصد الحصول على لقمة العيش والأنف. ينتعل حذاء بفردتين مختلفتين متآكلتين: شعر طويل مشعث، مشية متمايلة وإدمان على تناول السجائر/ عفوًا أعقاب السجائر: يجمعها من المقاهي والطرقات، يفتت تبغها، ثم يلفه في ورق أغلفة السكر، ويمتصها بعنف دون كلل أو ملل، كأنما يمتص حلمة الأم. أسمال مرقعة ومتسخة يضعها على

جلده المخشوشن/ المتشقق. تتضارب آراء الناس بخصوص أسباب فقدانه لرشده: منهم من يُحَمِّل النسوانَ مسؤولية ذلك، وآخرون يُرْجعون ذلك إلى تمرد مبارك ضد بركة الوالدين والأولياء الصالحين، بحيث إن الطار وعلا هذا؛ صحبته أمه إلى أحد السادة الأولياء لعلاج مرض جلدي، فكان أن تغوط وتبول على قبره بداخل الضريح، ومنذ تلك اللحظة جن وافتقد لبه... الناس كلهم متحيرون في أمره... كيف كان وكيف أصبح؟ الجمال، الصحة والمال، كل شيء تحول في لحظة قصيرة إلى مرض، فقر، وعفونة، تخلى عنه أهله، وحرموه حقه في الإرث، فساح في أرض الله الواسعة؛ حيثما وجدت مزرعة أو حقل أو بستان، فهو يزورها ويخدمها بشكل عجيب، ودون علم من صاحبها ولا يطلب أجرة مقابل ذاك، كأنما يفعل ذلك لإشباع حافز داخلي مُلِحٍّ. الطار وعلا يتعامل مع التجار والفلاحين ويقوم بخدمتهم مقابل دراهم معدودات، ولأنهم يثقون فيه، فهم يأتمنونه على تجارتهم وأموالهم، ونادرًا ما يفقد رشده في مثل هاته المواقف، لكنه عندما تشرد بلبه الشياطين، يصيح أعلى صوته، وعوض أن يمدح السلع يهجوها وأصحابها –حاطا من قيمتها ومعوضًا الجودة بالرداءة:

"وا زيدو أعباد الله لي بغا يشري ما يضرو، جميع الأشياء المضرة موجودة عندنا" ولم يكن بطلنا– الطار وعلا– يضير الناس في شيء، لكنه كان يزعج النساء والأطفال بحركاته العشوائية، ويثير في قلوبهم الفزع والرعب، وإن لم يثبت أن آذى أحدًا.

يقطن هذا (الأحمق) كما يسميه أهل البلد بـ"نوالة" من القصب والتبن ويقضي ليله في طقوس خاصة سامرًا في حلكة الليل مع أنين نايه، وشجي أنغامه مرددًا بصوته الصداح أزجالا ابتدعها بنفسه، تنضح معاناة واختبالا الآن بدأ عوده يَهِنُ، وظهرت على وجهه علامات الكهولة، كما قلّت تحركاته. ورغم ذلك؛ ظل حاضرًا بقوة في أذهان الناس ليس بفضل شغبه فقط، بل لأنه يمثل ضحية وأرضا خصبة لوضع تكهناتهم وإسقاط أحكامهم (هذاك سابو السخط- عاصي الصالحين- نيتو غارقة- مجذوب خاطف حصير الجامع...)، بينما يرجع بعض آخر أسباب سقوطه في شرك التيه والخبل إلى زواجه ممن كانت تعشقه من الجنيات، ففضح سرها؛ مما جعلها تنتقم منه، وذلك بأسر عقله في الثلث الخالي؛ وَتَرْك جسده يتعذب بحمقه... والواقع أن الحس الرهيف الذي كان يتمتع به "الطار وعلا" جعل طاقاته العقلية تنفجر أمام إكراهات الواقع وخيباته وضنك المعيش. لذا فهو صمم على أن يرافقه جنونه إلى السماء بعد أن يعذبا بعضهما البعض في الحياة الدنيا...

٢- بهيجة...

وأسطورة البحث عن شهوة مفتقدة

لا يمكنك أن تغادر أرض بني فرج أو تتجاوز ضريح سيدي مسعود بن الحسين دون أن تسمع عن بهيجة، المرأة التي لا يدري أحد من أين قدمت ولا ما الذي أصابها، وقد تجرك الصدفة إلي أن تلقاها فتصدمك بحالة رثة وملامح متسخة... قد لا تسعفك قابليتك للأكل في أن تتناول وجبة ما لو تذكرت سماتها، بلقاء اللون، مما يتيح للوسخ أن يتربع ويزهو... وتلقمل أن يسرح كقطيع غنم جائع... الغائط يلوث ثيابها السفلى، وبول نتن يغطي تفاصيل الجسد...

تصلك الرائحة عن بعد خطوات... ولا تفارقك إلا بعد أن تنام وترى ما لم تر من أضغاث أحلام... تسير لا توقف... يرميها الأطفال بالروث والحجارة فتبكي كطفل صغير ويقطر من أعينها القيح والدم وكثير من الألم... ويسافر بها الأنين والصوت الخافت المبحوح إلى السب والشتم بكلام ناب. تدخن بشراهة كل ما تجده أمامها من أعقاب السجائر. تقف وسط الطريق، وكل من مر أمامها تخاطبه بصوت الاستعطاف مادّة يديها النحيلتين:

- أعطني شهيوة يا خيي!

لا ترهق نفسها بالتسول أو البحث عن الطعام؛ فهي بمجرد أن يستبد بها الجوع والحاجة إلى الحياة تقصد كل ما تجده أمامها من خبازين

وبائعي السمك المقلي وبائعي العنب... تختطف ما يكفي لسد زحمة الطوى، ثم تهرب غير مبالية بضربهم وسبابهم. تأكل بشراهة، ودون تذوق. معدتها طاحونة لا تهدأ ولا تتعب، تقضي حاجتها حيث اتفق؛ وهي تبلع أو تقتل القمل أو تزيل الأوساخ من على جسدها الذي ملأته التجاعيد...

تجولُ ساحات ضريح سيدي مسعود بن الحسين وشوارع القرية بأرجل حافية مدماة ومتشققة بالجروح والجذام، وبوجه يثير التقزز والاشمئزاز... لا تتعب من السير، نصف جسدها السفلي يكشف عن أشيائه الأكثر حساسية، مما يدفع الفضوليين والمتلهفين لمعرفة الحواس المثيرة للجنس إلى اختلاس النظر... تَرى أحيانا الناس، فاغرة أفواههم يتمعنون أعضاءها التناسلية، وربما بتلذذ... هذه اللامبالاة جعلتها تؤدي الثمن غاليًا، حيث انفرد أحدهم بها، ذات مساء، بركن قرب جدار المارشي القديم، واستل سيفه المخبوء وشحذه في جبها المهترئ...

طعنة قاتلة أفرزت طفلاً ذكرًا وتسعة أشهر من الوعثاء.

ولما أزف الوضع، نقلوها إلى مصحة عمومية، حيث تخلصت من مولودها... وظهرت بهيجة، بعد ذلك، بنفس السحن. وعندما كان يسألها الناس عن ابنها، تبكي ويختلط ريقها الوسِخ بالدموع... وقبل الحمل، كانت تنسب حملها إلى أحد المجانين. وما أكثرهم! وتقول وسط الملأ: حملني عمر القواد...

لا يعلم أحد أين تبيت. فليس هناك من ينشغل بحال هؤلاء عندما يجن الليل... بهيجة مثلها مثل الآخرين، يقصدون الهوامش والأسوار القديمة والردهات والمسارب المظلمة والدور المهجورة بعيدًا عن أنظار الناس... وامرأة مثلها، عارية من كل حماية، يمكن أن يضاجعها حتى الكلاب. تغالب أمواج الهلع والخوف، وتحارب نوائب الليل بصدر عار مثل الحيوانات البرية الضالة. ليس هناك من يتركها تستند على جدار بيته حتى.

لست أدري كيف استطاعت أن تؤمن الحياة لوليدها، في مثل هذه الظروف، سحابة تمضي وأخرى تجيء، شمس تغيب وأخرى تسطع، وبهيجة هي هي، لا تزداد سوى سوء ورداءة أحوال، تراها شتاء مثلما تراها صيفا. تحمل سوءاتها وعيوبها: تفضح شراسة زمن لا يرحم. تعيش زمنها كما تريد منشغلة بحمقها عن ضوضاء العالم المقيت، وتُحَلِّق في سماء الجنون كعصفورة طفلة.

بهيجة تموت كل يوم ألف مرة، لكن جنونها العنيد يأبى عليها السفر صوب الحتف... ويأبى عليها الناس المكوث في دائرتهم. حينما تمر في الشوارع؛ الكل يطردها، ولا تسمع سوى: (هيه، سيري فحالك، تفو... الصباح لله !).

فأي جحيم سيستقبل بهيجة، ومن ينهج في الحياة سيرتها غير القمامات والأسوار المهجورة التي لم تعد تصلح سوى للتبرز والتبول والمزابل. وما أكثرها في زمننا الموحش!

٣- المصطفى السوصوليكس:

النمر الآدمي الذي روضته السلاسل والفلقات

بدويٌّ جامحٌ رفضته حتى المنونُ، ربما أن طعمه لم يُستسغ بعد، فهو أشد شقاوة من أولئكَ الذين كتب عنهم فيكتور هوجو في بؤسائه الذائعي الصيت، مع أن صديقنا المصطفى ولد الكحل كما يسميه أهل بلدته لبيادرة، أو كما يسميه أهل السوق (أو هو العفريت لي كيشرب الزيت)، اعترف له أقرانه بالبسالة والذكاء في الصغر، وما يزالون يتحدثون، بإكبار، عن بطولاته في العراك والعمل. ولعل فزعهم منه وجبروته الذي فُرض عليهم فرضًا أبعدهم عن التتبع، عن كثب، لما حدث له، حتى فاجأه الخبل والتيه في عز شبابه. لذلك ليس غريبًا أن نلفيهم يتهربون من هذا الموضوع، ودون شك، أن هجرته إلى المدينة وعشقه المجنون لإحدى بنات عائلته ورفضها له أجج نار الخيبة في نفسه، فذاب عقله في اللاشعور وأفسح الشرفات على شساعتها للتيه في دروب الحمق، فصار مثل البركان الهائج الذي لا يخبو نشاطه عنفًا وتمردًا، وتميز باعتداءاته على أبناء بلدته خصوصا أفراد أسرته: فكان، من حين لحين، يهيج كثور مارد فيعيث في الأرض فسادًا. فكم مرة هاجم والديه بمذراة أو بمدية مهددًا إياهم بالقتل، فيستغيثون بالجيران كي يخلصوهما من بطشه. وكان أهل الدوار يستعملون الحيلة تحاشيًا لأذاه. وأصيب أبوه نتيجة ذلك بمرض الفالج الذي لم يفارقه حتى نقله

إلى العالم الأخر. أما أمه، فقد أفقدها كيده رشدها وكبدها، فكرهت حمقه وشكته للناس بعدما أفسد دقيقها واستعمله جيرًا يطلي به الأسوار والحيطان... وبعدما بعثر فلاحتها، وكسر أواني أخيه الذي كان يشتغل قهوجيا بالسوق الأسبوعي القريب من بلدة "لبيادرة" نقلته أمه، بمساعدة أهل الدوار، إلى خلوة سيدي مسعود بن الحسين. فوضع رهن الحجز، لكنه هرب، بعد أيام، ليلاً واعتدى على إخوانه واختطف القدر بلحمه ومرقه وتركهم يتضورون جوعاً وحنقاً، فشكته أمه من جديد إلى رجال الدرك الذين لم يتوانوا لحظة في القبض عليه واعتقاله وإشباعه ركلاً ورفسًا مدة ثلاثة أيام، غير أن ذلك لم يزده إلا تمردًا– وإن قلت قواه ووهنت–

سمته أمه بالمسخوط ودعت له بالجذام والجذري، وتسلح إخوانه وَوُضعوا في حالة استنفار قصوى لصده وردعه، وأفلح بعض المحسنين من البلدة في نقله إلى مارستانات "برشيد" ثم "بويا عمر"، وظل هناك مدة ثلاث سنوات، ثم ظهر مرة أخرى بوجه مختلف ذي ملامح بشعة وصور غريبة...

كان يجوب القرية صامتًا لا يتكلم حتى ولو ضربته ساهمًا في عالمه الخاص بنظراته القاتمة ومشيته المخاتلة وسماته المهملة بشكل صريح... لم يعد إلى خيمة أمه وإخوانه، بل قَطن بدغل الوادي المجاور. وبمانه كان يستحم. اشتغل أول الأمر، بتقسيط علب السردين وقطع الخبز، ولما لم يقصده الناس لاقتناء بضاعته، أخذ يلتهمها دفعة واحدة، وكأنه

لم يتناول لقمة منذ شهور... يبدو أن العنف روَّضه، وأحاله خشبة خاوية تغرق في صمتها المستديم... لم يكن ينطق سوى بغمغمات:

- السوصوليكس

- أوهو

مبهمة كلماته وغير ذات معنى... يتحدث كثيرًا عن المريخ والألعاب الممارسة من قبل إخوته... وأخيرًا عفت عنه أمه بعد أن تأكدت من تعقله النسبي... أصبح يساعدها في الشاذة والفاذة وبات مثل الحمار يتجه حيث أمرته دون نقاش. لا يفارقها إطلاقا، يلازمها مثل ظلها ويطيعها حد الإذعان... يحضر كل المناسبات، فرحًا أو قرحًا.

السوصوليكس يأكل بشراهة. يسمع الكلام ولا يعلق إلا بعينيه وحركات يديه، يسبق الأجواق أثناء حفلات الأعراس ويعزف على كمانه بشكل ماهر... أصبح يحب هذه الآلة بجنون العشاق، إذ لا تفارقه، يدخن السجائر الرخيصة، بل يبلعها مثل قطع الخبز... يجيد صنع الكمان من علب الزيت الزنكية المرمية في الزبالة.

يضرب الأخماس في الأسداس، ويدفع عربته في السوق الأسبوعي بحثًا عن زاد الأنف والبطن... رغم تقدمه في السن ما يزال ينعم بسمات الشباب... يحتقره أهل سنه ومجايلوه... ويصل حد حنقه لما يناديه أحدهم "بالسوصوليكس العرابي" أو يناديه بـ"مضاجع الحيوانات" يلطم خديه ويقذف الحجارة في الفراغ... ولا يتكلم

"السوصوليكس" ابن تربة لا تضيع هويتها، غير أن السفر الزمني الموبوء ألقى به في حجْر الموت البطيء: موت في الحياة الدنيا، ثم موت ما بعده موت، ولا تدري نفس ماذا تصادف غدًا...

٤- اللعبة السيط الليط

العسكري الذي ذهبت الحرب بلبه وأفقده هولُها رشدَه

كان رجلا غريب الأطوار، قوي البنية، دائما يحمل بين منكبيه العريضين عصا مسلحة بالمسامير- والويل لمن يناديه بـ"اللعبة "- يقلب الدنيا ويفسد كل ما يلفيه أمامه ويعتدي على النساء والرجال، كبيرًا وصغيرًا، لا يسلم من شره أحد. ورغم مظهره الأنيق، حيث كان يحمل (مقجحة) ويرتدي (كوستيما) رائعا، ويضع نظارتين، فقد كان عصبيًا إلى حد لا يطاق، إذ غالبا ما كان يستفيق باكرًا، ثم يقف أمام باب السوق بتفرس الوجوه والملامح، وعلى المارة أن يحنوا رقابهم ويضبطوا حركاتهم وسكناتهم، ومن ابتسم أو رفع رأسه نال فاكهة زرواطة اللعبة- السيط الليط، وبعد أن ينتصف النهار وتمتلئ "الرحابي" بالباعة والمشترين. يعيد اللعبة السلاح إلى مكانه، ثم يتوغل داخل السوق، ومما يثير الضحك أن الناس يفرغون له المسالك والممرات بسرعة، أحيانا يصادف سيارة أو عربة، فلا يفسح لها المجال، وينتصب أمامها، في كبرياء، ثم يستل سلاحه ويضرب إطارها بعنف. يهرب الركاب ويتركونه في صراعه مع عدوه الوهمي. كان كثير الشك، عنيدًا، يظل أوقاتًا طويلة يقاتل السيارة/ العربة إلى أن يمل، ثم يغادرها بعد أن يتلفها. يأخذ من محفظته جريدة قديمة وينشر دعاياته وبياناته حول حرب محتملة ستقع في العالم،

ذاكرًا الأسباب والتفاصيل، بخبرة واسعة، زارعًا الخوف والـــذعر في صفوف البدو بلغة واثقة. اللعيبة شحاذ متمرس، يأخذ المال بـــالقوة، يقف أمام خيمة التجار متأبطًا هراوته كأنما يطلب أتعاب حماقاته، وما على الضحية إلا أن يؤدي الثمن تحاشيًا لمـــصائبه المفترضـــة، إنـــه لا يطاق... مرة سرق شاة وذبحها، ثم نعم بلحمها وشرب دمها علـــى مرأى ومسمع من راعيها، وإبان السوق الأسبوعي، كان يهدم الخيام ويطلق وثاق البهائم والدواب ويفزع الأطفال والنساء لإثارة الفوضى في السوق. كان الناس يهابونه لأنه ذو شهادات وكفاءات وتنويهات من طرف مصلحة الدفاع الفرنسية. كان يتحدث بلغة فرنسية ركيكة عن كيوم وهتلر ولاندوشين وديكول. تزوج في آخر أيامـــه بـــامرأة مجهولة الهوية (مجنونة أيضًا)، واستوطنا كوخا بالسوق القديم. كـــان يقودها من يدها، طيلة الأسبوع، وياديها "ســـوزان" إحالـــة علـــى عشيقته القديمة بفرنسا. أحيانا كان يعنفها، فتظهر للناس سيئة الهيئة، حائلة اللون...

لم يكن يعرف أحدٌ أين يبيت اللعيبة، لكنه مرة طـــاف جميـــع دروب وضواحي القرية، صارخًا، كعادته، معلنًا، في الناس، خبر قدوم حرب محتملة ستأتي على الأخضر واليابس، ولما تعب، قصد ضريح ســـيدي مسعود بن الحسين، بكى وشكا، ثم أحرق ثيابه وهراوته... وصباحًا، لم يظهر له أثر، فيما كانت جموع الناس تشيع جثمان سوزانه الحمقاء، ويحملونها إلى المقبرة القريبة من الخلوة... رحل اللعيبة ومعه جبروته.

ولم يعد، لكن، مع ذلك، ظل يحضر رعبه القلوب والأنفس، كلما وطأ الناس عتبة الطريق المؤدية إلى ضريح سيدي مسعود بـــن حـــسين أو السوق الأسبوعي.

٥- الرداد

يرهب الناس بفراسته ويعيش خارج العالم!

لما تشرق شمس الأصيل على الخميس (خميس الزمامرة) يكون الرداد قد عبر الكثير من الدروب والأزقة بحذاء رديء؛ أو غالبا ما يعبر الشارع الرئيسي وهو حاف بأرجل متعبة أدمتها الأحجار الناتئة بين حيي السلام وبام، وربما استرق بعض الإيماءات خارج نطاق الزمن الليلي تحت سقف سماء عارية قرب عين الماء الرابضة بهدوء بمحاذاة الطريق الذي يقصد مشتراية الغربية... يبدو خارجًا لتوه من سوق السمك أو الخضارين أو المطالين؛ وكأنما السماء وهبته ميسمًا خاصًا: رأس أصلع تعلوه عروق دموية بارزة وتحفر جبينه أخاديد عميقة وآثار ندوب قديمة، ترصع صلعته حبيبات من الطل ويغمر وجهه تراب البارحة الذي بات يتوسده حالما بعالمه الخاص... تميزه ضحكته الهستيرية التهكمية... يضع على رأسه طاقية تنحدر لتغطي مساحة كبيرة من جبينه الداكن... فتلمع عيناه البنيتان كنجمتين مطفأتين بالضباب؛ لكن بمتعة خاصة تتيح للرائي رؤية الوجه الآخر لسعادة الهستيريا العميقة التي تمرح في باحاتها روحه الغائمة، ترى البسمة تشع من فمه العريض الأدرد الذي خربه السوس، وقد تسمع قهقهته المجنونة تتردد عبر الأسواق والجدارات الهرمة، فيخيل إليك أنك تسمع قعقعات رعد متفاوتة يمزق هويتها المضطربة برق خاطف... بخطوات

عشوائية، يتمايل عبر ساحة الشارع كالثمل بشرب الماحيا... مرة بعد مرة، يتوقف بفرامل قوية ويدور حول نفسه دورتين كأنما يسائل العالم عنف اللحظة الساخنة.

الرداد ليس متوسلاً وليس أحمق لدى الكثيرين، لكن الشيء المؤكد هو أنه صريح حنون ظريف، لا يتعدى ولا يتجاوز حدوده... إنما يتكلم من غير وازع ويطلق الكلام على عواهنه، تخاله دجالا لم يحترف حصد أرزاق العباد؛ كأنما طاقيته الساحرة تختزن العرافة الثاقبة... يستمع الناس لكلامه ويتفاءلون به... قال ذات مرة لصديقي إسماعيل وهو يحتسي قهوة الصباح الممزوجة بسيجارة أول النهار: "احض راسك راهم تابعينك" جاء إلي إسماعيل على وجه السرعة، مزعجا بعينين جاحظتين وهو يتمتم:

– الرداد فايل عليا في هذا الصباح... الله يحفظ وصافي...

ووقعت لإسماعيل حكاية تأكد، من خلالها ذاك المساء، أن للرداد فراسة قوية، وأن تخوف الناس من شر نبوءاته أمر مشروع...

الرداد ناقة بلهاء تطأ بقوائمها أفكار الورى وتصوراتهم... يدخن السجائر بشغف ويمتص من دخانها قدر ما تنفث المداخن، بصدر عار، يستقبل الريح الصرصر العاتية، وبجلد مقشر مزدوج يستقبل العواصف والأنواء... له عشق غريب للحيوانات الأليفة، ولها ميل غريب نحوه، تفهم حركاته؛ فتأتيه طائعة لتشاركه طعامه... يُضاحكها بهستيريا حتى تبدو نواجذه. ويقوم أحيانا ليراقصها تحت ضوء النجوم

الساهرات... يتفحص وجوه المارة ويقرأ ملامحهم ساخرًا قبل أن يطرح فرضيات فراسته المخبوءة... يقصد مقهى "ميلانو" أو مقهى "النيل" ليطلب قهوته مجانًا، يكتفي بالجلوس، ثم يبدأ سلسلة ضحكاته المجنونة فيأتيه النادل بـ"قهوة حليب"، غاضبًا يضع له فنجانه الصباحي، ويغادر تاركًا للرداد سلة سباب:

- اشرب حنجر وأعطينا التيساع.

لم يكن عنيفًا ولا مخيفًا لكنه مزعج... يكره الناس رؤيته صباحًا لأنهم يتطيرون منه، إذ يطردونه من مقاهيهم، ومن شرفات منازلهم، فلا يجد ملاذًا سوى العراء والجداران المهجورة، ولا يلفي غير التربة الندية وسادة لليل ناصب لا تغادر كواكبه...

يدندن الرداد باستمرار في المماشي ويقهقه على الأرصفة المتجاورة دون ملل كأنما يخطو في عالم يتجدد كل صباح

٦- العماري...

هيكل آدمي مصبوغ بطلاء الأوساخ والقمل وجسد منهك بالعري والحشيش والجنس...

لن تسأل أحدًا عن العماري، تكفيك زيارة خاطفة لضريح سيدي مسعود بن الحسين لتميز ملامحه وسحناته، ينادونه بـ"بوكاشة" نسبة إلى الطرحة المتسخة التي يلتحف بها جسده صباحًا ومساءً، صيفًا وشتاءً... مسام جسده انغلقت بكثرة ما تعلق بها من العفونات والشحوم، تبدو سحناته غامضة باهتة متوارية خلف طلاء مزيت يشبه شحوم المحركات... وتتخلل لحيته المتناثرة الشعر أعواد وقطع أوراق وبقايا سجائر، لا يفارق أنفه دخان التبغ ولا تبارحه علبة السيليسيون حتى أن هذه الرائحة أصبحت ميسمه الخاص، مدمن حتى النخاع على استنشاقها... يحتاج إلى الكثير من العلب ليمرر النهار... السيلسيون بتزينه المميز الذي لا يحتاج معه إلى قوت... أحرق الكثير من الأعصاب ليصير كما هو عليه الآن، لا يدري أحد متى يستيقظ ولا متى ينام، إلا أنه يتجلى في كثير من الأوقات بجانب شجرة أو سور يضاجع الأرض في هيام كبير... يُعرف في القرية بميسم الشذوذ الجنسي، حيث يتجول في الشوارع مكشوف العورة، طالقاً العنان

لسوطه الحيواني يتجول بين أعشابه الكثيفة... ضُبط، في حالات كثيرة، يضاجع الحيوانات في السوق الأسبوعي بعد أن يأتيها بالأعشاب والحشائش... يتلذذ بعنف خاص قبل أن يستسلم لتمدد هادئ... وغالبا ما يشتبك في صراع مع النساء، إذ يستغل مواطن الزحام ليسترق لمسة من مؤخراتهن والمواطن الحساسة في أجسادهن... ولكثرة ما افتضح أمره، أصبح يتتبعه الرجال وتحتاط منه النساء... يقصد الضريح، كل سبت، أثناء قيام طقوس "الحضرة" لينال نصيبه من الجذبة، لكنه يصطدم بعنف المصابين بالصرع الذين ينهالون عليه باللكم حتى تسيل دماؤه؛ فتلوثَ أجورَ الضريح؛ وهو يبكي مثل طفل صغير ضاع من أمه لحظة زحام سارق...

العماري مدخن من العيار الثقيل وأكّال حشيش ماهر، ونشّاق سكير معربد لا تفارقه الثمالة... يمد خده للمارة كي يحصل على نقود تضمن له دفء لحظة رامشة من لذة البطن أو الفرج... عرف بصحبته لعاهرة. كلما أتاها تلبي رغباته. تمنحه أحيانا مؤخرتها بالكريدي (الطلق)... ولما تلومها صويحباتها تتذرع بكون العماري هو الوحيد الذي يلبي رغباتها، تقول إن العماري آدم فحل... تقضي منه إربها وتطرده عاريًا يلهث ككلب... يقصد متعبًا أي جدار أو شجرة ليرتمي تحت الظل دون حراك، فيما قضيبه العاري يتأرجح منتصبا في الهواء عاريًا يقطر ريحه مثل أير حمار...

العماري من سلالة شجرة شريفة تمتد أغصانها إلى جـذور المـشرق؛ شجرة ما يزال ظلها ساريًا في كثير من القبائل اسمها "أولاد أعمارة"، لكن قيلولة زمن مُرّ جعلته يثور على كل الأعـراف ويكـسر كـل الحدود ويتنكر لكل القيم التي ينهل منها لب المجتمع... سمح في كـل الأمجاد ليسبح في حوض عكر مطوق بـالموت والوعثـاء والعفونـة والآثام... حياته جحيم تفور نتانته ويسيل لهيبه على وجهه نـدوبًا لا تحصى، ونارًا يحسها وحده، ولربما يتلذذ بوهجها صامتًا كأنمـا هـو خشبة ممددة...

٧- كرط بلكدية

ولد مقهورًا وعاش مذعورًا ومات مهجورًا

سماه أهله محمد، لكن الناس تبين لهم أنه بعد نضجه بكثير، لا يرقى إلى مستوى تحمل أوزار هذا الاسم النبوي فلقبوه بـ"كرط" نسبة على أحد ألقاب السيد الحمار. ولصقت به، من بعد، كما يلتصق به جلده؛ ولازمه مثل ظله لكثرة تداوله بين الناس وشيوعه بين الأجيال التي عقبت مجايليه. لم يكن مؤذيًا لأحد؛ وإن اشتدت قواه ومتُن عودُه... فقد كان خادمًا مطيعًا لكل من يمنحه أجرته في إرضاء معدته وتلبية رغباتها. من غرائبه أنه كان يحب "باداز"[٩] ويشترطه كوجبة إبان اشتغاله مع أي كان. يبلع قصعة بمفرده، ولما ينتهي، يقوس ظهره نحو الخلف ويعزف بمؤخرته موسيقى غريبة عن طريق الضراط... يعزفها أمام انفجار الضحك من أفواه المتحلقين حوله... وغالبا ما كان يستغل الناس قوته وسذاجته لإنجاز أعمالهم الشاقة كحفر المطافي والمطامر وخزائن الحبوب... يعمل كثيرًا ولا يطلب إلا القليل... لا يستريح كأنما جسده من حديد!

---

[٩]- أكلة مغربية شهيرة تشبه الكسكس غير أن تصنع من طحين الذرة بدل القمح.

كان يدوس الشوك والحجر الناتئ وأوراق الصبار بأرجل حافية دون أن يتألم! يشرع فاه للريح ويعري رأسه للشائعات؛ ويتغطى نهارًا بشمس الصيف؛ ويتدثر ليلاً بالنجوم. يرعى قمله وبرغوثه ويعيد ما سقط منه إلى جلده وهو يضحك قائلا: كلٌ ما قسَّم ليك الله!

ينام حيث اتفق مثل البهائم والأنعام... كان يحب لعبة "هيري" يدخل دائرتها بفرح طفولي ليقفز في كل النواحي، يستقبل الضربات بصمود ويردعها كسُور عظيم. وحتى حينما يهزم أحدهم، فإنه لو تنازل له عن دوره ينوب عنه.

ولد بـ"نوالة"* من أبوين فقيرين تتوزعهما النوبات والشدائد، ورضع ثدي أم هزيلة فارقت أباه بعد مدة، وتركته لأبيه الذي ودعه وعانق أحضان امرأة أخرى بعيدًا عن ذلك المكان، وعاش طفولته بئيسًا محرومًا من كل الأشياء الجميلة التي يحسها الأطفال وينعمون بها في كنف ذويهم، ولم يجد "كرط" الطفل اليد الرحيمة التي تحنو عليه... في قريته لا يولي الناس أهمية سوى للبطن والفرج... عاش ذليلاً بين أقرانه، وحينما كان الطفل/ محمد ينهزم في "الرونضة" يحكم عليه الخصم بأن يكون حماره فيقله مسافة معينة... ويطالبه بالنهيق... ومنها لقبوه بـ"كرط" نسبة إلى سلوكه الذي ينسلخ على الحمار... أو الحمارة... فقد شاع أنهم مارسوا عليه الجنس من الخلف حتى لقب

---

* مسكن تقليدي قديم كان يصنع من التبن والقصب، اندثر الآن مع هيمنة البناء الاسمنتي.

بالحشى... يجمع أعقاب السجائر، ويلفها في ورق السُّكر ثم يدخنها بجنون... يدخن أكثر مما يتكلم... تراه غائرًا في صمته مقرفصًا في الجانب الأيمن للطريق الرملي مشبكًا يديه حول صدره، محدقًا في الأشياء برؤى غامضة لا يسعها المجال... غارق في خلوته وحتى إذا وقفت بجانبه يغرقك في بحر الصمت... حتى ولو شتمته لن يجيبك إلا بضحكة مزلزلة يعقبها الصمت المديد لا يشكو عناءه لأحد... وحتى حينما يمرض يظل صامدًا في وجه الألم، دون أنين، برأس عارية، كأنه يعارك الأيام القاتمة، حليق مثل حجرة صماء تلمع، خاصة في الليل، حينما يسقط فوقه الرذاذ...

قطن أول الأمر "نوالة" بجوار المسجد بدوار لبيادرة غير أن"الحضرة" أحرقوها بسبة أن قملها الذائع الصيت وصل إلى ألواحهم وأمتعتهم فنهبها. لم يحتج ولم يُعلقْ. لكنه صمَّم على أن يُكْمل حياته في المقبرة بضريح سيدي عيَّاد السبع، حيث لا يمكن أن يضايقه الغرباء...

عاش بلا زوجة ولا أبناء، ومات وحيدًا غريبًا بعيدًا عن المقبرة، وبالضبط داخل كهف عتيق بعيد عن الساكنة... لم تُكتشف جثته إلا بعد أن طالت فداحة رائحتها البلاد والعباد...

مات وفي نفسه شيء من الصمت... غيَّبه موتُه فلم يُبْك أحدا ولم يُسْقط دمعة ولا أحزن قلبًا، ولم تمدحه نائحة، ولا شقت خدها من أجله بكرٌ... أحب الكدية فسُمي بها وعشقَها فمات بين غربتها..

٨- "الدوتش الفارة"

جرحه بحجم الأرض وفاكهته موت مستحيل

شاسع في انطفائه حد الغروب، لا يشاطره في تدفق المسرارة حجماً سوى الغدير المجاور للرثمة الوحيدة بالبلد، حتى في أيام الأعياد لا يبدو إلا كريح غريبة في واضحة النهار أمام الخان الوحيد بالقرية، لا يسأل الناس إلا لمامًا... هجر الدنيا وطلق متاعها منذ الصغر. لقد تعود أن يلقى في الحياة دومًا الأسوأ. فما إن بدأ يشتم عبق الحياة حتى فطن إلى متاعب الزمن المرّ التي تنتظره، إذ فقد تاجا حياته (والديه) وهو ما يزال لم يتذوق طعم طفولته بعد، وشب بين كافليه وضيعًا، يتيما، بين خيمات ورجالات الجوار، يعبث أبدا بأنامله في الأرض، ويرخي لحية سَودَها الغبار والخشاش... يهيم على وجهه في الأرض بلا هوادة محني الرقبة لا يبالي بسقم... عندما يكون جالسًا قرب الحانة تخاله يفكر في مصير كل الناس، نظره ممتد كالهبوب لا يكدر صفوه غير اقتراب ثلة من المدمنين على القمار، حيث يجفل بسرعة الريح ويختفي قبل أن تستقر أعينهم على شبحه الذي يطارده الغبار... سريعًا يعدو غير مبال بالأحجار الناتئة والحفر العميقة والسفوح، حافيًا يعبر الأشياء بعناد وبأرجل متينة صلبة مثل المهراس... لا يظلم أحدًا، لكن حساسيته

المفرطة تجر عليه المتاعب وتكسر عوده أمام الآخرين الذين ينـــهالون عليه بالسب والشتم، إذ يكفي أن تناديه "الدوتش الفارة" ليغـــرق في بحر الغضب والسخط، خفيفًا كالظل يهرول كناقة عشواء...

يختفي أحيانًا إذ يسافر إلى أماكن قريبة أو بعيدة... يعمل حيثما اتفـــق دون أن يسأل عن الأجر... يكفيه أن تحضر له زاد البطن والأنـــف ليخرب كل الأرض. الدوتش الفارة قوي البنية ومحني الظهر بالكـــاد قرب الرقبة، مديد القامة، تقاسيم وجهه حادة كالـــسيف لا ينالـــه السرور لا من خلف ظهره ولا من بين يديه... شـــاحب كالـــشمعة الوحيدة المعلقة في الركن القصي من ضريح أعزل لا يمـــت بـــصلة للحياة... تنكر له أهله فهام على وجهه في البسيطة يستعير من وهج الشمس دفئًا، ومن فجاج الريح يتخذ اعتدال حرارته الفائقة...

"الدوتش الفارة" رجل نبت في الخلاء، لا أهل ولا مـــستقر... يعـــد الزمن بردته المثقوبة من الخلف دون أن يلتفت... حتى حينما تستفزه، ينسحب مستعطفًا... يسمي كل باسمه ولا يسميه أحد باسمه ، لذاكرته قوة التداعي، ولنظراته الثاقبة سحر الفرز والتصنيف، يستطيع معرفة شجرة الصبي العائلية من خلال ملامحه وسماته الفيزيولوجية... ويتعدى ذلك إلى حفظ أحداث القبيلة ومواقف شخوصها المنصرمين...

من غرائب "الدوتش الفارة" كونه يرفض النساء ويمـــارس الجـــنس بأشكال الشذوذ، وإذا أنت كلمته عن الزواج يغضب ويتمرد، ما عدا حديثه المقتضب عن معشوقته القديمة بنت الجيران التي كانت تمنحـــه

أقاصي جسدها بكرم شاسع ليتفنن في تدليكه... ويمكنه أن يصفه (جسدها) بكل تفصيل وإطناب وبوسعه أيضا أن يطيل في تعداد ما يشعر به من لذة وعنف في شهواته معها... يحكي أنها كانت لما تخرج أمها، تستدعيه ليمشط شعرها ويدلك عضلات فخذيها وساقيها وحتى بطنها... ويحمر وجهه حينما يذكر أنها مرة عرت له مؤخرتها الفاتنة وقالت له: نقي لي شوك الهندي...

" الدوتش الفارة" عميق كالجب، جامح كالتفاصيل المفرطة، حار كقهوة الصباح، غائب ظاهر مثل ثعلب زفزاف، غامض كالهامش الذي لا تسعه رموش الورى... التيه آفاقه البعيدة، والحزن ميسمه الموروث، ظله النسيان، والموت القادم فاكهة يراها كل صباح... الغد الموغل في الغموض والماضي المنكفئ على نفسه في نظره سيان.

٩-"عيوش الخادم"

ذات القطط السبع...

لأمر ما كانت القطط تفد عليها مثل الصراصير...

كانت غير ذات مسكن ولا أهل لها... لكنها تظهر في المدينة مثل الشبح، تلفيها حيث تذهب كأنما هي صور متعددة لوجه واحد... تمشي الهوينى... فما الذي سيجعلها تسرع؟ مفلطحة كالشارع لا تزول البسمة عن محياها الذميم، ذات ملابس رثة خَرَّبها الوسخ وحال لونها حتى غدت مثل الحجر الذي ينصب عليه القدر في البوادي... امرأة لا تستطيع تحديد سنها.

تحب الحيوانات كثيرًا خاصة القطط والكلاب، تمنح حضنها العريض لسبع قطط متقاربة السن، وتستبيح جسدها ساحة لشغبهم... تحنو عليهم كتعويض عن غياب أبناء، وتمرر يدها على فروهم النافر... تكدح طيلة النهار لتوفر لهم مؤونتهم... تظل القطط تتبعها بين الشوارع والطرقات مثل أم رؤوم... تتخذ من ضريح مولاي عبد الله أمغار سكنا دائما.. ويحكي ذوو العلم بالبركات أنها عاشرت ضريح الولي الصالح مسعود بن الحسين مدة من الزمان... فوقف عليها الواقف في المنام وأمرها بأن ترحل إلى حارس البحر الأمغاري، فثمة الحل لعقدها، والشفاء لدائها... ليست مفزعة، بالعكس تجدها محبوبة لدى الناس، حنونة على الأطفال، وبالجملة ليست مؤذية تماما... أيام

المهرجان الخاص بموسم مولاي عبد الله أمغار يستغلها (الحلايقية) والحكواتيون للتهريج نظرًا لسذاجتها ومظهرها المضحك/ المحزن، مقابل دريهمات قليلة، تحب لعبة الملاكمة كثيرًا وتمارسها ضد الرجال في (الحلقة)... أحيانًا يثير الصغار المشاكسون غيضها فترميهم بالحجارة، ترغي وتزبد إذا نادوها (عايشة الكحلة) أو (عايشة طرطح)... تجوب أسوار تيط وباحاتها وتزور كل الأسواق بحثًا عن قطعة خبز حاف وبعض الدسم... يبدو أنها لا تحمل همًا سوى هم بطنها والهررة التي تقتفي رائحتها وظلها... تسير بلا مطامح لأنها في نظر الناس مجرد (هبيلة) أو (بوحاطية) تعبر الأزقة والشوارع الإسفلتية بأرجل حافية تضيم النفس وتبكي الجوارح... تحب الحلقة[11] بشكل ملفت وتجد ذاتها في المشاركة في إضحاك الناس وإسعاد لحظاتهم... ولو وجدت من يستغل مواهبها المسرحية لأدت أدوارًا ممتعة خاصة في المسرح الكوميدي... لكن مجرى الزمن لم يترك للدراويش حتى الحُشاشة من ثمل الحياة الضاجة...

تسري عيوش باكرًا، يتعثر بها المصلون أمام باب المسجد قبيل صلاة الفجر وهي تدعو للناس بصوت تخالطه غنة الصباح وتتبع خطاهم بعينين يغالبهما النوم، فيما يداها لا تفتران من مداعبة القطط السبع ذوي الألوان المختلفة، وتقديم قطع الخبز لهم... تضحك تارة، وتبكي

---

[11]- فن فرجوي يتواجد بكثرة في ساحة جامع الفنا بمراكش الشهيرة.

أخرى كطفل مقهور. ولما يغافلها الوسن، تنام حيث اتفق، وأحيانا يسمع السكان نواحها في الأزقة في الهزيع الأخير من الليل.

هكذا تفضل "عيوش" أن تعاشر الحيوانات بدل الناس، ربما لأنها تتخذها فلسفة في الحياة... وربما لأنها وجدت فيها الإخلاص والوفاء اللذين لم تجدهما في الإنسان...

١٠- بن الشيخ:

حُكم عليه بأن لا يغادر أسوار المدينة العتيقة

هل تتصورون كيف يمكن لإنسان أن يعيش طول عمره بين سورين أو أربعة أسوار أو مكان محصور بحواجز؟؟؟ تخيلوا معي! لا تندهشوا! مجرد تصور لا غير! ربما أن الموت أرحم بكثير! ولكن ماذا لو كان ذاك قدرا محتوما؟ كان ذاك حظ إنسان يدعى "بن الشيخ" الذي كتب عليه أن يحيا سجينًا قسريًا بين أسوار مدينة تدعى "تيط" و"حكم" الولي الصالح مولاي عبد الله أمغار... عاش طيلة عمره لا يفكر في الخروج من بين حيطانها وأبراجها البرتغالية والفينيقية، بل لا يحلم حتى... هل تتخيلون ما الذي يحدث له، لم يقف في طريقه أحد، ولم يعترض طريقه حاجز سلطة، ولم يضعه مريد في خلوة، بل كان محاصرًا نفسيًا. كان لا يستطيع مغادرة الأسوار، وإلا أصيب بالصرع والغيبوبة، أغلبهم يرشحون السبب الأول لذلك ورود واحتمال تواجد جني يحل فيه لحظة مغادرة الباب القبلي أو الخلفي. لم يثبت أن عني بالاعتداء على أحد أو مطاردة أحد أو أثار مشاكل بالمدينة، بل كان يحب أسرته وأهله. وكانوا يتبنون احتياجاته ومصاريفه. بذلوا الكثير من الجهد كي يعيدوه إلى ما كان عليه أو بالأحرى إلى الحالة العادية لكن دون جدوى... وُجد أكثر من مرة خارج الأسوار مرميًا فاقدًا للوعي دون حراك... فإذا ما أعيد إلى داخل المدينة عاد إليه

رشده واستفاق من صرعه. ليس سهلاً أن يجد المرء نفسه محكوماً بسوار فولاذي يحجب عنه الحياة، مهما تكن صلابته قد ينشق لو كان ظاهرًا للعيان، حتى ولو كان سور طروادة. فاليد الآدمية الناقمة لن يعوزها هدمه. لكن كيف والحاجز الذي يطوق حياة بن الشيخ وهمي روحي لا يراه حتى هو نفسه فكيف سيساعده الآخرون؟ ذهب به أهله إلى بويا عمر وبرشيد وكل الأولياء.

زار عرافات واستعمل البخور واستحم بماء سبع أمواج؛ لكن الحالة ظلت على حالها... لم يكن يجد ذاته سوى بين هاته الأسوار الطاعنة في القدم... لا يؤنسه إلا مذياعه (النمرة ثمانية) وقصبة الصيد التي يتسلى بها ويطحن الوقت إلى جانب البحر بشاطئه الصخري الحابل بقنفذ البحر ذي الشوك السامّ... تمر عليه الدقيقة مثل عام. حفظ الأزقة والدروب عن ظهر قلب وتمنى لو أنه افتقد ذاكرته ليعيد تأسيسها من جديد بدون حروب ولا خسارات...

لم يفكر بن الشيخ في المرأة لأنه يجدها هناك حيث يشتهي قرب (المحكن[١٢])؛ حيث تتحرر الفتيات تمامًا من كل ملابسهن الداخلية بأجساد شهية، ثم يسبحن في ماء (المحكن) المذكور طردًا لنحس العزوبة وتيمنا بقدوم عرسان هائمين... كل ذلك كان يحدث أمام عيني بن الشيخ الذي وإن كان غمه يشغله عن باقي ملذات الحياة،

---

[١٢]- مكان أسطوري يوجد بمدينة تيط الصوفية القديمة القابعة على الأطلسي، حيث تحج الفتيات العوانس لطرد نحس سوء الحظ، واستجلابا لعريس محتمل.

فإنه غالبًا ما كان يحس بأن أجساد النساء العاريات توقظ في أعضائه السفلى أشياء غريبة لم يستشعرها من ذي قبل... تهيج، وتصلب، وانتفاخ، وتنمل يسري عبر العود الفقري، وأنفاس تتهدج تدريجيًا مثل عاصفة تتشكل...

"بن الشيخ" كان جنونه صامتًا، ظريفًا لا يؤذي أحدًا ولا يزعج الناس، يحاور نفسه، ويقضي السويعات بعيدًا عن جلبة الناس واشتباكهم مع مضارب الحياة، وكانت تلك فلسفته في الحياة.

بن الشيخ شخص هادئ لا يعكر صفوه حتى الترال المسلح الصاخب، ولا يفكر في غير همومه، كأنما رؤاه لا تبارح ما بين الرجلين، أحياناً يتراءى لك لكأنما يعد الحصى والحجر دون كلل. يجلس متكئًا على الجدار، محنيًا رأسه الصغير المعفر بالغبار لا يلوي على شيء ولا يبالي بأسئلة العابرين للرصيف. بين يديه عود يخربش الأرض اليابسة... تقرأ خطوطه فلا تعطيك إلا الفراغ المستحيل، ولا تفهم ما توحي به أصلا أو فصلا.

بن الشيخ يحب اللحم ويأكله، لكنه لا يستطيع رؤيته نيئا؛ فإذا ما حدث أن رآه تأتيه نوبة الصرع العنيدة ولا تفارقه إلا وقد أسقطت قواه... كانت طريقته في اقتناء اللحم، أن يأتي بالقفة ويناولها للأقربين من الجزارين؛ لكي يضعوا فيها قدرًا من اللحم وهكذا، حتى إذا ما بلغ منزله كان يتحاشى أن تلتقي عيناه بكتل اللحم قبل أن يطزج...

ولأمر ما، عندما يطبخ اللحم ويطرح، كان يأكل بشراهة البقر والإبل دون أن يطيل الطبخ.

بعضهم يقول "سكون الله يستر" وبعضهم يقول "ساكنه مولانو على اللحم"، ولسنا ندري رأيه فيما يعانيه.

كم كان يحب أن يخرج من سجنه ما بين السورين، غير أن الأجل قرر النفاذ؛ قبل أن يحقق حلمه... كان يجرب أن يخرج من قفصه كل عام مرة رغم العناء الذي يلحقه...

فهل كان ذلك سر من أسرار الأسوار؟ أم أن عشق تيطل لابن الشيخ حفز الأسوار على أن تأسره؟

مجرد تساؤل، والعلم لله قاهر الخلق بالموت والفناء.

١١- الطرقحية:

مقدسة الأسفل... معلقة الرغبات الذكورية.

هذه المرأة تنحها كل نساء القبيلة بـ"لالة" ويلجأن إليها أجلا أم عاجلا في أمر من أمورهن الكثيرة، فهي عليمة بأسرار الرجال وتبدلاتهم، خبيرة بخفايا أحوالهم، عارفة بتقلبات النساء ومكائدهن... مثل جنية قاهرة. تخبر العرافة والسحر، شديدة قلة الحياء، مفرطة في الشجارات والنزاعات.

تسب الرجال ولا تهاب أحدًا، شديدة البأس سريعة القلق... كم دفنت من رجال... وكم من نساء رحلت وطلقت... حتى الكلاب تهاب شرها... شيطانة من النوع الرفيع.

الطرفحية هذه؛ امرأة، رغم كل شيء، جميلة فاتنة لكل من رآها، ولها طرق هائلة للإيقاع بالذكور. لها زوج قهرته وخربت فحولته، فأصبح معطلاً لا يحرك ساكنًا... ليطلق لها العنان بعد ما روضته وابتلعت ثروته، لتفعل، بعد ذلك، ما تشاء دون أن يبعث، في نفسه، نزقها واستهتارها، شيئا من رجولته... ذاع صيتها في القبيلة بعد أن ركبت الرجال وقهرت النساء...

للطرفحية جسد يفيض بالأنوثة التي لم يستطع زوجها الهزيل إشباعها، فجنحت إلى اقتناء اللذات المحرمة، فكانت تستضيف الرجال الفحول متسترة بسبب ما، ثم تنصب لهم الحمام وتعطرهم وتكرمهم بالرفيسة والدجاج البلدي لتعرض عليهم الخدمة، وكانت لها جملة شهيرة ترددها على كل من يمر بهذا المقام:

– بردني يا خويي... را العافية شاعلة فيا...

ثم تدخله على مقصورتها الخاصة (القبة)... وما أدراك ما القبة... لا يدخلها إلا ذوي الرماح الطاعنة والسيوف المغلولة... والويل لمن رفض طلبات الطرفحية!

كانت تقيم حفلاً كل نهاية شهر بمترلها وعلى نفقتها. وتستضيف أصدقاءها المميزين الذين يطفئون النار المستعرة بداخلها. إنها امرأة لا تتكرر... امرأة تكثر بداخلها ألف امرأة أخرى... كل الشباب الذين غسلوا فيها شهوقم وجدوا أنفسهم مكبلين ليلة الدخلة بلا أسلحة، وما عاد لهم من فكاك سوى أن يستغيثوا بالطرفحية التي تعرف وحدها

المفتاح السري، فتفرض شروطها القاسية: أن تأخذ من العروسة ليلتها الأولى، وأن تحل محلها ليلة العرس، وأن تؤتى بكبش وألف درهم... كانت تقول: "دخول الحمام ما هو مثل خروجه!"

الطرفحية تفكر، بشكل هجاسي، في الأسفل... لذلك فكل أفكارها تحمل نسمة الجنس... وكان الرجال يخافون على نسائهم من مرافقتها؛ مخافة أن تحرضهن على الفعل الحرام... كانت أيضا تحب الحمير الذكور وتكرمهم وتجزل لهم العطاء... تعتبر الحمار فحلاً عظيماً وتتفرج على ممارسته الجنسية، قبل أن تهب مشتعلة إلى النفار الظريف صاحب الخلقة العظيمة ليطفئ لهيبها بسوطه المحطم للرقم القياسي...

داهمتْها الشيخوخةُ وفتكتْ بها الفاقة؛ فقطنت ضريحًا واحترفت التسول والدعارة مع من هب ودب... قبل أن يُفاجئها الموتُ في الخلاء...

١٢- فراينكو:

أسطورة البحث عن كأس العالم!

ترتبط بعض القرى الصغيرة مثل بني يخلف بأسماء رجالات بصموا أثرهم في جسد تاريخها، كما يمكن لها أن ترتبط بأسماء رجال مضوا ولا يُعرف عنهم ساحقو الأسفار والكتب شيئًا، بل حتى في الخطاب الشفهي الجمعي يُعدون نكرة. فليس منا من يعرف من هو "بنو يخلف" هذا أو أعجيل أو أفرج... وليس غريبًا أن تنهض قامة الدجالين والحماق في مثل مناطق صغرى كهذه، وأن تنتشر أسماؤهم مثل النار في الهشيم. وربما، بسبب توغلهم هذا في الذاكرة والأشياء، قد ينالون موقعًا لا يناله حتى صانعو التاريخ، في مثل هاته المناطق الصغرى على الأقل، هكذا ينتشر صيت "فراينكو"، الرجل النحيف ذو الصلعة البراقة، يحلق رأسه بمفرده وبطريقة بهلوانية، ثم يدهنها بالزيت البلدي فتلمع في حلكة ليل بني يخلف مثل جمرة متقدة. ومع ذلك فهي محج تبرك النساء، وإن كانت، في بياض النهار، تصير هدفا تتصيده حجارة الصغار المتهورين! ليس هناك أعداء لفراينكو المُزوَّر غير الأطفال الذين يطاردونه حتى في لحظات قضاء الحاجة... لكن انتقامه عسير، فهو يرد الصاع صاعين وله ذاكرة قوية... مثل ذاكرة فيل...

فراينكو مدخن بارع، لكنه لا يدخن سوى السجائر، ولا تسمح له نفسه بتدخين أعقابها مثل باقي من عرفتهم من حماق المنطقة. كان أيضًا

يجمع دريهمات يقدمها لمن يمنحه نشوقًا من الكيف أو الحشيش. خدوم يسقط بين يدي من يجزلون له العطاء. وغالبا ما يستخدمه البعض في الانتقام من أعدائهم. سريع التنفيذ وحاد المزاج يقدر على الطعن بالموسى، وشديد البأس في رمي الحجارة، يصيب أهدافه من الرمية الأولى، ربما اكتسب ذلك، من خلال تمرسه على استقبال ضربات الأطفال؛ وكذا تسديد القصف المضاد. من شيمه الخطرة؛ أنه إذا قهره الجوع والرغبة في التدخين، يقصد أي منزل أو أي شخص. فإذا ما امتنع عن تلبية حاجاته ورغباته، وضن عنه بالعطاء، اختلط لديه الضيم بالألم؛ فينقم على أهل المنازل ويصوب اتجاههم غضبه، فينهال عليهم بقذائف الحجر مثل منجنيق هادر! ولا يكف عن ذلك إلا إذا لبوا له ما طلب منهم. يخالط الكبار والصغار ويجوب الطرقات بأرجل حافية وأسماء بالية. وببنية ضعيفة يستقبل بكرم جيوش القمل وقوافل البراغيث التي تنط فوق جلده المتفحم بجمر العرق ولون الأوساخ، وبأظافر ممدودة ملأى بالقاذورات، يحك إهابه الميت بلا توقف...

ينتاب فراينكو، في أحايين كثيرة، هزات عصبية قوية مثل لسع الكهرباء، فيشرد ككلب تتلوه الكلاب المسعورة ويطارده الصيادون، يصيح صيحات تُذَوِّب الحجر. ينتف شعره، يلطم خده، يسب أهل البلد، ويلعن نفسه... تبا لنهار يتبعه ليل بهيم، يسكن الروح قبل البلاد ... تبا... تبا...تبا.. هكذا كان يصرخ فراينكو المسكين...

١٣- الجعيدي:

"صعصع" الذي قهر رجال القبيلة

رغم أنه عاش أيام "السيبة"! أيام كانت كل قبيلة تتسامى فيها عن الأخرى... والويل لمن زجت به الظروف ومر على حدود قبيلة غير قبيلته فإنه يأكل ما قُدّر أن يأكله شارد القطيع.

ورغم أنه لم يكن يحمل معه سوى محفظته الجلدية وملامحه الصارمة ونظراته الثاقبة وقوته الحيوانية... فإنه كان يهاب ويفزع ويشعل حرائق الخوف في نفوس الناس نظرًا لشراسته وقبح هيئته...

حكى لي بعض المسنين أنه كان فارع الطول؛ عملاقاً... عظيم الخلقة.. تنفر منه حتى الحيوانات... أسنانه تفيض عن شفتيه وشاربه بحجم بلغة... وكان يترك شعرًا خرافيًا ينهمر على ظهره ويستر منكبيه دون انتظام... يرتدي السروال القندريسي والقشابة القصيرة تاركًا غابة صدره تلاعب الريح... وجْنتاه منتفختان ممتلئتان بالهواء وبطنه فزاعة. أما القدمان فلا قدَّ لهما في أحذية الأرض. لذا كان يذهب عند الخراز ليصنع له شبشبا من جلد عجلاته الخاصة. يمشي فيتبعه الغبار من خلفه. ويعرفه الناس من أثر قدميه فيرتعبون قائلين: "من هنا مر الجعيدي" وقد اشتهر بطريقة في التعذيب لا يقوى عليها غيره، إذ كان يمنطق الرجل من عنقه بساعده ويتركه يموت ببطء، حتى إذا ما بلغ الموت الحلقوم أطلق سراحه. وتركه مغميًا عليه قبل أن

يغادر المكان.. وصادفت الفترة الذي عاش فيها الجعيدي أيام كرب وجوع وجفاف... فكان يكسب قوته بالقوة دون أن يهاب العواقب... شديد البأس، لا تطيقه النساء على الخصوص... فكل من سبق له أن تزوج بهن لم يتجاوز عمر بقائهن لديه سوى الأسبوع الأول، نظرًا لفظاظته وضخامة ذيله. حيث كان مدفعه ليلة الدخلة يسبب لهن الكثير من الإيذاء ويجعلهن يذرفن الكثير من الدم عوض الثلاث قطرات. وقد عزفت أغلبيتهن عن الزواج؛ لأن أثره ظل بليغًا في حرورهن التي ما فتئت توجعهن نتيجة الالتهابات والجروح التي خلفها أثر انبعاج جهازه التناسلي البهيمي وسوطه الذائع الصيت البليغ الأثر والضرر في آن واحد... وهذا ما يجعلنا نتصور أن هذا الأحمق لو بقي حيًا إلى الآن، لجعلت منه قنوات الخلاعة واحدًا من نجوم هوليود وأبطال الإيروتيكا العالمية. تراهن، ذات مرة، مع مجموعة من الفلاحين، فأكل أربع كيلوغرامات من الإسفنج وبرمة من الحريرة وسطل ماء وأكمل وجبته بالبيض... وقال معاتبا إياهم (أنا الآن فقط سددت الجوع ولم أشبع بعد! فهل من مزيد؟؟ فهربوا بعد أن خافوا من أن يكمل بأحدهم وجبته...

١٤- لحسن بيخا:

يشرب الماء المغلي ويأكل الثعابين

هذا الرجل النحيف، الباهت الملامح، المهمل لمنظره، العاشق للتراب والطمي، أسماله ملوثة بالغبار والوحل، مدمن حتى العظم على شرب الكحول واللانكول، طريقته في السكر غريبة. لما تشتد به الثمالة يأخذ شفرة من نوع مينورا (رازوار) ، ثم ينهال على جسده النحيل طعنًا بشكل متوازٍ والدم يتفصد بغزارة. يتحلق حوله الناس يطلبون اللطيف والستر. يوم الأحد، يستيقظ باكرًا كعادته، يقصد سوق الأحد الأسبوعي بعد ليلة صاخبة في بهو سيدي مسعود بن الحسين، يحمل ما حضره البارحة من عجين، يضع ثلاث حجرات حول حفرة صغيرة. يضرم فيها النار، ثم يجعل فوقها مقلاة قديمة ويصب الزيت حتى إذا أصبح مغليا يرمي فيه الإسفنجات، ويحركها بقضيب حديدي أفسده الصدأ. وعندما تنضج يقدمها للمارة نساء ورجالا لم يكن حسن بيخا مزعجًا، لكن منظره كان سيئًا للغاية، خاصة حينما يتناول جرعات الجينكا، حيث تتهدل شفتاه وتبزغ عيناه المحمرتان، ويغطي البصاق نصفه الأعلى العاري. الناس يتهافتون على إسفنجه معتقدين أنه يحوي البركة والشفاء...

بيخا هذا، كانت له طريقة عفوية للإيقاع بضحاياه من النساء، حيث يستغل خروج الرجال إلى العمل، ليبدأ طوافه بالأزقة والدروب فاتحًا

نافذة نصفه السفلي، مخرجًا ثعبانه البهيمي. تقف النساء على أبواب وعتبات الدور متأوهات، ناصبات شباكهن للإيقاع به في لذة فراش، ولأنه كان مقبولا لدى الناس، فلم يرعب النساءَ أن يدخلنه إلى بيوتهن، وإذا تمنعت عنه واحدة منهن، فإنه يتعمد القيام بعملية التبول قربها ليثيرها أكثر، فلقبه أهل البلد (البانضي) بعد أن افتضح أمره، دلالة على مكره.

وقد اشتهر بممارسة الجنس على المختلات عقليًا ممن يزرن الولي الصالح (مسعود بن حسين) وخلواته، وقد أخصب بطون العديدات منهن. ويكون يوم السبت عرسه الخاص بقبة الولي، حيث يشكل حلقة ضخمة، يتجمع الزوار حوله، فيشرب مقراش الماء المغلي، ويبصق به على وجوه الناس الذين يمسحون وجوههم قائلين "الله ينفعنا ببركتك آ الشريف"

عاريا نصفه العلوي، يصول ويجول بين حزمة الثعابين والعقارب والأفاعي؛ يقبلها ويمتص ألسنتها ثم يلفها حول خصره وعنقه. ولما يغضبه الناس، حين يفرون لما يطلب الفاتحة، ينهال على أضخم ثعبان فيأكله حيًا، والسم والدم يسيلان من فمه المثير للاشمئزاز، يتقيأ الكثير من الناس، فيما يطلب البعض اللطيف! وغالبا ما تنتهي مثل هذه الأعراس بطقوس الدم والهلع، حيث يغرز "بيخا" السكاكين والمديات والمسامير في وجهه وأطراف جسده غير عابئ بالألم. ترتعش فرائص الناس وتلين قلوبهم، فيما يسقط "بيخا" مغمياً عليه... دراهم

معدودات تسقط على جسده المضرج في الدماء، كل هذه الأشـــياء عجلت بنهايته... ففي أحد الصباحات، وُجد الرجل ميتًا قرب جدار الضريح، تتجمع حوله جحافل الذباب والناموس، ولولا ألطـاف الله لأكلته عصابة الكلاب الليلية التي تتجول في الحي. مات وفي نفـــسه شيء من الخبل...

١٥- "بزط":

بوعو الذي لا يقهر

لا أحد يستطيع بدقة أن يعرف سيرة خروجه عن طريق الأغلبية. والسؤال الذي طرح نفسه بالحاح من المجنون؟ هل الـ"نحن" أم هذا الذي نسميه "مجنونا"؟ لا أحد- تأكيدًا- يستطيع معرفة الجواب...

سهر "بزط" الليالي من أجل أن يكون فلاحًا عظيمًا، لكن ضيق ذات الجيب وذات اليد جعله يميل إلى "التخماس" ومن كثرة ما تحمل الأعباء وناء بثقل السفر بين الطرقات... افتقد صوابه... وساح في الأسواق بحثًا عن سبل الرزق... غليظ... سمين... يمشي بقدمين حافيتين... لا تؤذيه الحجارة ولا الطرقات الوعرة والمسالك المتعرجة... أحيانًا؛ كان يصنع من جلده الذي صار مثل الخشب حذاء أو ولاعة أو أي شيء يعوض آليات أخرى ضرورية للحياة... كان يتهرب من جموع الناس ويميل إلى العزلة يسب الناس ويخاصم العالم ولا يعبأ بالقيم... لم يتزوج في حياته أبدًا...

يحكى أنه كان يحمل معه هراوة منتقاة؛ ليحارب خصومًا وهميين مثلما فعل الدون كيشوط قبله بقرون... وحتى في السوق الأسبوعي لا يسلم من غضبه من قُدِّر له أن مسه أو احتك به... إذ يهوي بعصاه على الجسد الغافل الذي لا يستيقظ إلا على صعقة الضربة الموجعة على كتفه أو خاصرته فينحني تحت تأثير الألم. وقد يسقط ليكون

فريسة رفسة أخرى أو ضربة مواليه أشد قوة... تستيقظ الضحية... تنهض ولا تشكو فيما يعود "بزط" إلى غيه القديم حاملاً كيسًا ينتقي مستلزماته وأشياءه فيجهز عليها دون مقابل، فإن تعنت صاحب البضاعة كان نصيبه من الهراوة وافرًا..

في آخر أيامه، أحس بألم في أرجله فانتقى لنفسه دواء غريبًا، اتخذ قدرًا من أحد الأملاح المعدنية من نوع الفوسفوريات التي تستعمل في تسميد التربة... ذوبها في الماء، ثم وضع فيه رجليه... وكانت النتيجة أن أصيب بمرض عضال برجليه انتهى به إلى استئصالهما بالمستشفى... وكانت المضاعفات أن غادر الدنيا بسبب حمقه. فذهب مثلا على أن من ادعى القوة يموت ضعيفًا... وما زال كل من مر بقبره أو ببقايا منزله يستشعر الهلع ذاته، وينتفض جسمه خوفا من بطش "بزط" وحمقه... وكأنه ما يزال حيًا...

١٦- الحاضري

لعنة مجتمعية ربانية على محترفي السياسة

لا أحد ينعته بالجنون... ولا أنا أستطيع أن أصنفه ضمن هذه الخانة... غير أنه يصف نفسه بأكبر المجانين على وجه الأرض... يقر بما لا يدع مجالا للشك أن حالة جنونه أشد تدهورًا من الحالات السابقة برمتها... مجنون حقًا بكثرة تعلقه... والشيء إذا زاد على حده انقلب إلى ضده... مجنون في حبه: قيل بأنه يستطيع، أن يحب، أن يشهر بعشقه ومعشوقته، يعلنه أمام الملأ وكل وسائل الإعلام وبمكبرات الصوت... مجنون في علاقاته مع الناس... مجنون في إدمانه على القراءة والسهر والخمر... وكل الأشياء... إذا دخل مجالا لن يفارقه حتى يمله... في مقهى الإنترنت كان ينسى نفسه وكل العالم، ويكون آخر من يودع الصالة... إنه يقرأ الجرائد يوميًا... كل الجرائد دون أن يقتني واحدة... تجده دائما في مشادة مع الكتبي أو بائع الجرائد... يقرأ ويدخن... يقرأ ويضحك... يقرأ ويناقش لوحده... واقفاً لا حراك... وفي ليل القرية ينشغل بنقاش الأخبار وطرح التأويلات التي لا تصدر إلا من عالم مستقبلي محنك... أحيانا تتكهن بكون الجن من يطرح عليه تلك التأويلات والتعليقات، ويساعده في ذاك خبرته الطويلة في مجال السياسة. له مفهوم خاص للنضال... ويتره نفسه عن السقوط في شركه... شارك في الوقفات والمسيرات والاحتجاجات

والندوات... سمع واستمع. أقنع وأقتنع... ولما لم يجد نفسه في إحدى هذه القنوات والأساليب، ابتدع لنفسه نهجًا خاصًا في الحياة سياسيًا واجتماعيًا... ألا وهو البحث عن الغنائم والزرود... وإذكاء نار الصراعات وتحريض الناس لإسقاط أعدائه... ولما لا تحقق النخب المسيرة رغباته، يؤلب ضدها الرأي العام... ويستنفر ضدها كل الحواشي... في الأسواق والبوادي... بين النساء والرجال والفتيات والسكارى... والحماق... سوس يعرف كيف ينخر الأغلبية ويفتتها لتصبح رمادًا... تجده في كل الجمعيات والاجتماعات... يبيع وجهه في كل الأسواق ولا يمجد إلا نفسه... شديد الحيل يجيد نصب الفخاخ... ولأن خصومه يستهينونه لا يدرون متى تأتيهم الصفعة (العود لي تحقريه يعميك...) يدخل إلى البلدة غريب الأحزاب وجديدها ويصنع لها مقرات ونقابات وقواعد... ثم يولي لها ظهره... ويرحل بحثًا عن أوكار أخرى وولائم جديدة... أبو شعيب هدمته السياسة واغتصبه الزمن السياسي فما باض سوى التمرد... وذهب التدخين بوسامته، وإن كان ما يزال شابًا... شديد البأس لمن عاداه يطعن دون أن يترك أثرًا... يقول الناس عنه: إنه شيطان سخره الله ليطمس شوكة كل حزب نسي الناس وانشغل بنفسه... يرهق كل العارضين والخاطبين والمبدعين بأسئلته المستفزة... ويتجاوز الخط الأحمر... فما يذهب منهم أحد بمزاج صاف... ولا أحد يستطيع أن ينسى الحاضري ووقاحته... جريء حد القرف، بليغ في سلاطته على

الرموز والقادة لا يلين له جانب... مجادل صنديد لا يبطره الخصوم... يبحث عن الساسة الجدد بالبلاد وكل من حل بها من نقابيين أو فقهاء أو مشعوذين... يزين لهم ما يزين... ويشوه لهم صورة من يكره ويحذرهم شر من يتطير منهم... ولا يبغي غير إفساد الأمزجة وتعكير الصور وتشويش الوضع؛ لينعم بلذة التفرج على الصراعات والحروب الباردة... يذكي نار الفتن و(للحروب غداة اللقاء مسعار)... والعجيب في الحاضري هذا، أنه يعلم كل صغيرة وكبيرة من تاريخ الأحزاب وندواتها وموائدها المستديرة واجتماعاتها الخاصة ومؤتمراتها... وصفات رموزها وأخلاقياتهم. الظاهرة والمستترة.. وقد يتفوق، في هذا، على الكثير من المنتمين ويهزمهم... له ذاكرة معطاء ولسان كريم... الحاضري هذا... يصبح عملة نادرة إبان الحملات الانتخابية... ينتقل في الحملة نفسها بين الكثير من الألوان حتى أنه استنفذ تاريخه ووقف تائها على شط الحيرة... الحاضري نموذج لجيل سرقته التيارات المتلاطمة بعدما مصت لبه ورمته أجلافا بلا هوية ولا أفق... تلك الطاحونة التي لم يسلم منها إلا (مرضي والديه).. وقانا الله شرها...

١٧ - شوطح

قاهر المجانين وصاحب "المعكسين"

اشتهر اسمه بين القبائل؛ وذاع صيته، وتناقلت بطولاته الألسن جيلا بعد جيل، سُمي بوكرن لأنه كان يترك سالفًا من شعره ينبت في قمة رأسه الذي يشبه "الكدية "على شاكلة "شقيف[١٣]"، متوسط القامة، ممتلئ البنية، قويًا على المصارعة والقتال، لا يرتدي سوى السروال "القندريسي" والدراعية. وحيث إن قامته وهيئته القويتين تثيران الهلع في نفوس الناس، فإنه لم يكن يتوانى عن توشيح مشيته ببعض الإضافات ليصبح مستفزًا أكثر دائما يحمل كيس "شمرتل[١٤]" على ظهره وهراوة مسلحة بالمسامير وسيفا حادا ألله له حداد القبيلة. حليق الوجه والرأس لم يترك على رأسه سوى تلك الجديلة الطويلة التي كانت تشبه ذيل حمار يتأهب للقفز فوق ظهر أثناه.

يظل يذرع الطرقات ويسلب الناس بالقوة كل ما يشتهيه من مأكل وملبس. إلا أنه لم يكن يحب النساء وأقسم ألا يتزوج بنت حواء، وقد أرجع البعض هذا إلى عشقه الكبير وافتتانه الشاذ برجل خنثى متأنث، حيث كان يتردد عليه في المساءات الباردة. ويحكي أهل الدوار أن تلك الليلة تظل تصدر عن بيت ذلك الخنثى أصوات تشبه أصوات

---

[١٣]- بطل السلسلة الدرامية السورية "الكواسر"

[١٤]- نوع من الخيش.

عراك البهائم وصهيل الخيول من كثرة اشتداد الرغبات واضطرامها. إذ كان يعصر "بوكرن" ذلك الرجل الشاذ، ويضاجعه بعنف الحمير. وكثيرًا ما كان يصدر عن البيت نداء يطلب الغوث، فإذا حج الملبون لهذا النداء يجدون الرجل الشاذ عاريًا تسيل مؤخرته بالدم، وتشهد على فداحة الكارثة أو يجدون بوكرن يعالج جهازه التناسلي الضخم فيشهر فيهم هراوته المسننة فيرجعون خائبين. والواقع أنه لم تكن ترهبهم عصاه المسلحة، وإنما كان يدهشهم حجم سوطه الحماري الذائع الصيت.

كان إذا جلس ليقضي حاجته في الخلاء يفرش لجهازه العشب والكلأ لكي لا يعفر بالتراب. وكان هناك في سوق من أسواق الشاوية عبد زنجي يُرهب الناس ويسطو على حوائجهم ويعتدي على زوجاتهم ويستبيح ممتلكاتهم اسمه "الجعيدي"، فبلغت هذا الأخير أخبار "بوكرن"، فهب إليه من ساعته باحثًا عنه، وخاف الناس على "بوكرن"، وعلموا أن سوق "بوقوبع"[١٥] سيكون حلبة لصراع مميت يكون ضحيته أحد الطرفين. وسمع العبد الزنجي عن قوة "بوكرن" واعتداد الناس به، فاغتاظ وهاج للنزال. وكانت رحبة "الحلايقية"[١٦] حلبة لصراع عنيف حيث تحلق الناس حائرين في دائرة كبيرة، وقف في أحد طرفيها "بوكرن" متطلعًا إلى العبد؛ وانتصب في الطرف الآخر

١٥- سوق من الأسواق الأسبوعية المتواجدة في سهل الشاوية الفسيح.

١٦- رحبة بالسوق مخصصة لبيع الفرجة، حيث يحج كثير من الفنانين والفلكلوريين من أجل عرض موادهم الفرجوية والهزلية والوعظية.

العبد بعينين يتطاير منهما الشرر... وقفا برهة، ثم اهتاجا وانطلقا للمصارعة مثل ثورين التقيا، فهبت زوبعة الغبار. وما هي سوى لحظات حتى انفلت البطل "بوكرن" من قبضة العبد وشده من أحد طرفيه ورفعه إلى الأعلى قبل أن يضرب به الأرض بكل ما يملك من قوة، فانغرس في الرمل ذليلا يتجرع خيبته، فصفق الناس بحرارة لسقوط العبد، ورفعوا بوكرن على الأكتاف وطافوا به السوق، قبل أن يكرموه ويحسنوا إليه، وظل بوكرن بقوته وجسارته أسطورة زمانه لدى قبائل دكالة، رغم أن الموت أخفى جسده الضخم الهائل البنية.

١٨ - "اعنيبة":

حكم عليه رجالُ القبيلة بحمل جيفة نعجة والتطواف بها في الأزقة والدروب

عرف "اعنيبة" برجل الليل الذي لا يشق له غبار، لأنه كان يظل حبيس خيمته في النهار ولا يخرج إلا في حلكة الظلام الليلي؛ إذ يتسلل في جنح الظلام ليعبر خارج حدود القبيلة بحثًا عما يدفئ فاره الغافي. كان سارقًا، محترفًا، ماكرًا، لا تنبت طريق عبوره بعده ربيعاً. يظل يخطط نهارًا لما يفترسه بالليل، ولا يخطئ هدفه. مصمم خطير، لم يسبق لأحد أن اكتشف سر ثروته، مع أنه لا يشتغل ولا يمارس نشاطًا تجاريًا، وينام الضحى، فلم يكن ينفتح على الآخرين أو يدخلهم إلى منزله. لذلك ظل غامضًا بالنسبة إليهم، حتى أتى ذلك اليوم الذي فجر المسكوت عنه، وكشف القناع عن وجه "اعنيبة" السيئ. فقد حدث أن خارت قواه ولم يعد قادرًا على السفر ليلاً، لممارسة القرصنة المباشرة في أماكن قصية. وبما أنه كان قد ألف حياة النعيم بدون جهد، فإنه لم يستطع أن يعيش على بسيط الطعام، فعزم على أن ينفذ بداية جديدة ويحبك خطة جديدة للعمل: أن يسرق أهل القبيلة دون أن يستشعره أحد، حيث كان يقود أثره إلى وجهات بعيدة؛ ليموه متبعي الخطى.

وكان في القبيلة رجل يضرب خط الرمل الزناتي، محنـــك في قـــراءة طلاسمه، نجحت عمليات القرصنة الأولى لـــ"اعنيبة"، واحتار أهل البلد لأنه لم يسبق لهم أن مستهم أية يد مارقة، وعهدوا البلد آمنا مطمئنًا، وبعد أن عجزوا عن تقصي أثر الفاعل، لجؤوا إلى ضارب خط الرمل الذي قادته الطلاسم إلى منزل "اعنيبة" وفي مـــنزل اعنيبـــة بـــدأت الحكاية: طوق أهل البلد منزله، وهبُّوا ليحاكموه محاكمـــة جماعيـــة لم يعترف من خلالها بما يشفي فضولهم... احتار ضارب خط الرمل وبدأ يعيد حساباته التي قادته إلى الزريبة التي مُوِّهت بالتبن، ووُضع فـــوق التبن "التين المجفف" ووسطها مطمورة محكمـــة الإغـــلاق، وداخـــل المطمورة وضع اعنيبة النعجة المذبوحة درءًا للـــشبهات ومخافـــة أن يفتضح أمره. أركبوه النعجة الجيفة وراحوا يتجولون بـــه في البلـــد ويأمرونه بأن يصرخ في الناس قائلا: "اسمعوا يا عباد الله يـــرحكمكم الله، أنا سارق نعجة فلان ابن فلان "وهذا جزاء من يسرق، فاحذروا يا عباد الله"

وبعد هذا المصير الذي لقيه "اعنيبة" عانى كثيرًا من شـــدة الأوجـــاع والأمراض. وكان لمرارة انكشاف سره، أثر كبير في إحباطه وإحساسه بالذل، فأضرب عن الطعام ليموت جوعًا وعطشًا.

١٩- ديد الحيوان:

بهلوان يرهب الصغار

لم يكن هذا الشخص فاقدًا لصوابه، فقد قيل إنه كان متزوجًا وله أولاد كثر، وعندما كان ينطلق من منزله الصغير من حي سيدي مسعود بن احسين نحو البراري المجاورة حافي الأرجل عاري الرأس، كان يحمل أبناءه الصغار المتقاربي السن فوق رأسه وكتفيه مثل النمل ويطلب بهم الصدقات حبوبًا ونقدًا وملابس وأي شيء... قده ربعة القوام ، قصير؛ وممتلئ الجسد، وزوجته مثله، عندما يتعاركان يفزعان كل الدرب ويرعبانه. يتراشقان بالحجارة، ويتبادلان السباب الساقط. وأحيانا يستدعي الأمر تدخل الدرك والمخازنية... وقد تنبه الصغار والمارة إلى نقطة ضعفه، فبمجرد سماعه لكلمة (ديد الحيوان) يجن جنونه ويقيم القيامة، ويتحول إلى حيوان جامح ترتعب من هجومه حتى الأرض: ترتج تحته، وتطلب اللطيف وكأن زلزالا حل بها... يرمي الحجارة... يقلب البضائع في السوق، يلطم النساء، يرغي ويزبد، ولا يسلم من حمقه حتى الكبار الرزناء...

ومع مرور الوقت، انتقلت العدوى إلى أبنائه، فتحولوا إلى عصابة تفتك بما حولها إن هي مست بكلمة (ديد الحيوان)... الكثير من الناس يضحكهم أمره، ويسليهم ما يفعله من حماقات. لذا فهم لا يعكفون عن إزعاجه وإثارة سخطه، وأحيانا يوجهون صراخهم إلى منزله كي

يهب إليهم ويطاردهم... ومع توالي الأيام ألف الناس وجه الديد وشغبه وأصبحوا يساعدونه على لقمة العيش وتآلفوا مع نمطه وحمقه وبدأوا يتخذونه مسليا لمجامعهم وجلساتهم... وهو نفسه، بدأ يعتاد الأمر مع كثرة ما مورس عليه هذا الاسم حتى التصق به وأصبح ميسمه الخاص... ولم يعد يُرعب الناس إلا لماما... وحتى حينما اختفى، ذات مساء، هو وأسرته بقي في الذاكرة يترنح طيفه وجنونه مثل خمرة في الرأس وقت الصباح.

٢٠- بلي بولكلاب

محنة البحث الدائم عن ودِّ الكلاب

عادةً، ما يدعوه أهل البلد "ببلي ماكو" لكثرة ما ينطق بصوت مسموع كلمة بلي، وقيل: عن سبب اختباله هو فقدانه المفاجئ لصديقه المبجل الكلب: "بَلّي" الذي كان يلازمه مثل ظله ويغدق عليه الوفاء.

أصابته صعقة تشبه الموت لما وجد كلبه الرائع صريعًا، بفعل افتراسه من طرف كلاب الحي الضالة قرب قمامة السوق الأسبوعي... حدث ذلك، قبل ثلاثين سنة خلتْ، وكان "بلي" هذا الرجل ما يزال شابًا غضًا، متصعلكًا، لا يهمه سوى البحث عن حاجيات البطن والأنف... قيل كان راعي غنم يستأنس بجروه الذي شبّ وصار ضخماً مثل الشبل الغابوي. ولما أصبح الحبيب والصديق غدرتْ به كلاب الدرب السائبة. وترك "ماكو" رعي قطيع أغنامه، إذ فضل التسكع بعقل

شارد وثياب ملوثة، ريق، ومخاط ودموع تذوي... وفم لا يمل من الهدير: بلّي، بلّي.. بلّي.. حتى لُقّب بـ"بلي أبو الكلاب" والغريب في الأمر أن بلي هذا، لا يسكن ولا يطمئن إلا لمجموعة الكلاب، ينام حيث تنام، ويشاركها المأكل والمشرب... وهي الأخرى لا ترتاح إلى له، وتهيج على أعدائه إن حرضها... يبيت ساهرًا، متقد العينين على عوائها ونباحها... ربما كان يتخذه موسيقى دائمة بما أنها لا تؤذيه...

ومع مرور الزمن، أصبح يصطاد هاته الكلاب لفائدة الناس لاستغلالها في حراسة الغنم والحقول والبيوت مقابل بعض الخدمات: "نقود- لباس- مأكولات... وكانت هذه الكلاب تطيع "بلي" وتستجيب لرغباته وبعضها لا يروض إلا على يده. وحتى بعد غيابه، تظل تتوق لرؤيته. وإذا ما تحقق لها ذلك، تنذرف الدموع من عينيها علامة على الوفاء...

"بلي بولكلاب" كان قوي البنية، شديد البأس على من يعتدي عليه، لذا كان الناس يتحاشونه، ولا يثيرون أعصابه، كما يفعلون مع الآخرين، شديد العداء لمن يستفزه. وكانت له ذاكرة قوية جدًا ولا يرد فعله إلا بعد أن ينسى الخصم الحادثة: وكان له ضحايا كثر... ومن هنا بدأت مشاكله... حيث كثر الناقمون عليه وذوو الثأر... تحيَّنَ أحدُهم الفرصةَ، ذات ليلة، وفتك ببلي وأرداه مغميًا عليه. لم يفق إلا بعد أيام من مرور الحادثة. منذ ذلك الحين، لم يكسب قواه، وتحولت هيبته إلى مجرد منهزم يجوب الطرقات بحثًا عمن يمد له قوت

يومه... حتى قوته الضاربة التي كانت تفد عليه من أصدقائه الكلاب، تفككت، بفعل عدم رضوخهم لطاعته، ونفورهم منه... هل قـدره، وهو الذي جاء إلى هذا العالم نتيجة انفلات ماء نزوة عابرة لابن قائد معمر أيام الاستعمار إلى رحم فتاة عاشقة، أن يعيش مؤديًا ثمـن مـا اقترفته يدا والده من ذنوب وخطايا في حق المستضعفين، فكان يجوب الشوارع حافيًا، باكيًا، شاكيًا، وينظر إلى السماء، كأنما يردد: ربنـا أهلكنا بما فعل السفهاء منا؟؟"

٢١- (لمحفحف):

يذبح النعاج الشاردة ويشويها... يدخن الكيف ويشرب الكحول...

الواقع أنه لم يكن أحمقَ... في بداياته كان شابًا وسيمًا تنجذب إلى سحره نساء القبيلة، اشتغل عسكريًا وتسلق المراتب وحصد ميزات كثيرة، فانقلبت خصاله رأسًا على عقب. إذ غاب الحياء عن محياه؛ واستبدل بنظرات حاقدة ملتهبة يصدر عنها الترقب والغدر والجنس...

مع مرور الأيام أصبح عنيفًا مع أهله ووالديه خصوصًا لما عرضوا عليه فكرة الزواج... شكّل فريقًا من العزاب وشيد بيتاً بعيدًا في أطراف القرية؛ أصبح يتردد عليه كل نهاية أسبوع، مجهزًا بالحشيش والبيرة والكيف، ويستدعي إليه أصدقاء السوء، يقضون هناك ليلة حمراء، وبعد أن يفقدوا صوابهم تحت تأثير المخدرات تشتد الشهوة بـ"لمحفحف" ويتهيج للأنثى؛ فيقصد أي منزل قريب لتكون ضحيته أية أنثى يجدها في طريقه، فيشبع منها غريزته الحيوانية ويتركها وزوجها غارقين في بحر الذل يتجرعان خيبتهما؛ لأنهما لن يستطيعا البوح بذلك بسبب اشتغال "لمحفحف" في المخزن. وكان في وهم أهل

القبيلة وقتذاك؛ أن كل من يعمل موظفًا لدى الدولة يمكنه أن يفعل ما يريد دون أن يحاسبه أحد.

وأمام تمادي "المحفحف" في أعماله الشنيعة هاته، دبر أهل القبيلة فخًا له ليتخلصوا من بطشه، إذ كمنوا له حتى ثمل وأجهزوا عليه؛ ليبتروا أطرافه ويكْووا بالنار جهازَه التناسلي، ثم تركوه وفروا بعد أن أقاموا فيه الحد... وبعد أن صحا من غفوته، وجد نفسه في المستشفى مبتور الأعضاء؛ فاقدا لفحولته التي كانت مصدر قوته. بكى بصوت مرتفع... صاح... فدفد كطير أسير، لكن حركته كانت سجينة، مشلولة. تجرع خيبته وساح، على عقبيه، في أرض الله الواسعة، أحمق مثل كل الحماق راضيا بالتسول والنوم في القمامة وأكل الجيف متأبطًا سيفه الحاد. لعله يخاف أن يهُبّ إليه أهل القبيلة فيترعوا منه الحياة، بعد أن انتزعوا فحولته. يشرب الكحول لكي ينسى الذي حدث، ويدخن الكيف بشراهة ليستطيع يتقبل مصيره الذليل... ويشرب الحشيش وحتى (المرض الأكحل) ليصعد، عبر الوهم، إلى مدن يرى فيها نفسه حاملة لمجده القيم؛ وليستعيد صوابه ورشده اللذين افتقدهما أمام طغيان عماء اللذة والشهوة والمال، مما دفعه إلى الاستهتار بذمم الناس وأعراضهم وحرماهم ووطء القيم الإنسانية التي تنظم سلوكات البشر. وهذه القيم لم تسلم من بطش "المحفحف" حتى هو مبتور الأطراف، إذ كم مرة يسلب امرأة حاجاهًا تحت غطاء الحمق، وكم

مرة ذبح شارد القطيع وشواه بالأعواد أمام عيني راعيه متوعدًا إياه بسيف بتار يتأبطه...

إن الناس يصيبهم الذعر أحيانا كثيرة؛ حينما يلمحون آلالات الحادة الفاتكة التي يحملها هؤلاء الحماق في واضحة النهار؛ خصوصاً لما يتذكروا أن أحمق مثل هذا، يتجول أمام البشر دون رقيب (حتى الرقيب الداخلي غير متوفر) يمكن أن يتحول إلى صاعقة بشرية... وقانا الله وإياكم شر العباد.

٢٢- (ساط الرعد)

زلزال في الأمعاء يقصف الخارجَ بالنتانة

ساط الرعد رجل بعينيه ورجليه، شَرِه حد الجشع، حسود ونمام، غليظ البطن والمؤخرة، عاشق للشحوم والزرود بالكسكس، يأكل قصعة لوحده، يفرح لموت جيرانه كي يشبع بطنه دون أن يفكر في أنه هو الآخر سيزور القبر لا محالة، يحسب نفسه شاطرًا، يبيع القرد ويضحك عمن اشتراه، يجلجل بصوته الأجش، وينكث ويثرثر في المآثم، ولا يحضر الأفراح؛ لأنه بخيل ويخاف أن يحمل إلى المحتفي هدية أو "غرامة"، عريض المنكبين، هائل الخلقة من فرط الأكل والشرب، لكنه مسالم حد الجبن، بطنه هي التي تسيره ورغباته البطنية العصبية التي تجعله يبيع وجهه مقابل أن يقتل شبح الجوع...

إلى حد كتابة هذه الأسطر، يبدو الأمر هينًا لا حماقة فيه، لكن الأمر والأدهى هو عندما ينتهي "ساط الرعد" من فلسفة الأكل الحرة... فعندما تشبع البطن تقول للرأس: "غن!"، لكن "ساط الرعد" هذا لا يغني بالطريقة المعهودة. إذ يقفل فمه وينحني إلى الأمام مقوسًا عجيزته إلى الخلف، ثم يطلق العنان لمدفعه البدين كي يطلق أصوات ضراطه المزعج؛ بحيث إنه يستطيع- والعياذ بالله- أن يفعل ذلك متى يشاء ولمدة طويلة عازفًا بصوت ضراطه أي أغنية يشاء والناس متحلقون حوله بكلام متعدد وقح: (تاشا لماليك - شطرح- أيو اطلع- سد

المدفع– أرا اكعد...) وهو في كل ذلك، لا يعبأ بما يقولون؛ كأنما يجد لذته في ذلك، تبعث الرائحة الكريهة من حوله كأنما هو مصرف الواد الحار... إذا تنفس يهرب الناس من حوله ويلعنون سلالته؛ وهو يضحك ويضحك بصوت كالرعد وينفث خلفه سمه الزعاف الذي يصيب بالحساسية كل من قدر له أن يشتمم بعض نتانته... وقد كان الأطفال الصغار يتبعونه في الشوارع وينادونه بكلمات نابية طالبين منه أن يغني لهم "الشاليني" بمؤخرته، فينحني كالمعتاد ويطلق العنان لرعده البائس الحزين النتن... والأطفال يغنون ويضحكون.

ولم ينقطع "ساط الرعد" عن هذه العادة إلا بعد أن كَمن له أربعة أشخاص ذوو بنية قوية في مسلك غابوي واغتصبوه بالقوة وأطلقوه بعد أن مارسوا عليه الجنس بشكل شاذ متشفين في اعتدائه على الناس وتلويثه للجو... بعد ذلك هدأ رعده ولم يعد يفتن الناس بضراطه... وكلما طلب منه الصغار أن يغني لهم يجيبهم: (لا يا أبنائي، إنهم أغلقوا لي الصارية "الغيطة").

"ساط الرعد" جنون في الذهن؛ وجنون في البطن، لم يفتك به سوى الشذوذ؛ ولم يهَلْ عليه التراب سوى موت محقق.

٢٣- حـمار الـرمـى:

وهـم البحـث عـن البركة!

منذ أن كنا صغارًا؛ عهدناه بسمرة الأرض وطول الجبل الفـارع. لا يبتسم. وحتى إذا فعل تخال ضحكته قعقعة رعد مجلجلة، يرعبك حتى حينما يبتسم. يخوف به الكبار الصغار، يقولون لهم: "جايكم بوعو" يتحرك في الليل؛ فتتحرك أطياف شتى على الحيطان والأسوار. سُمي بحمار الرمى، لأن الرمى، وهم شيوخ القبيلة، كانوا يعاقبونه بحمـل "البردعة" والتجوال بها أمام الملأ قائلا بصوته الصداح: "أنا بري أنـا دزي ها حالك يا من يغلط مثلي"، وتبنى الخيام ويحج ناس القبائل من كل فج عميق؛ ليأخذوا البركة من الشيوخ الآتين من بعيد، كل منزل وخيمة تطالب بإحضار قصعة كسكس... تنصب الولائم وينادي حمار الرمى بصوت صداح يهز كل جنبات القبيلة: "وامن يأكل طعام الله يا ودي!!!" يخترق صوته البراري المجاورة، فيهب الناس مثل الريح الهائم مقتفين آثار رنات صوته القعقاع. وعندما تأتي وجبـات ووصـلات المواد المعروضة أمام شيخ الرمى ورجاله، يستفتح حمار الرمى العرض برقصة جنائزية يسميها "التبوريدة" يتحلق حوله الجمع ويوسعون لـه المجال، يتحرك مثل جن شاهرًا هراوته المزخرفة قائلـة: هـاوا هـاو والخيل... دكوه... دكوه آ العونات"، ثم يتصور نفسه يفرغ بندقية في الهواء. وبفم كبير يفرقع شفتيه: تبخ... تبخ... يصفق الحضور ويشعر

حمار الرمى بالزهو أمام رضا الناس ورضا الشيخ... يجلس الهويني ووجهه بنبض بشرًا وحبورًا ظنًا منه أنه قد جنى الكثير من البركات، خاصة، عندما يدعو له الجمع ويبخ فوق رأسه شيخ الرمي... فقدَ الكثير من صوابه مع تقدم السن، لم يكن له من يرعاه، لا ابن ولا زوجة... عاش هائمًا طوال عمره... تزوج، لكن لم يدم ذلك طويلا. فسرعان ما ودعته زوجته فارة لتتركه وحيدًا في مفترق الطرق بين الحياة والموت...

وظل هكذا مدة... يحضر الزرود ويتجول في الأسواق حتى فاجأته المنية في العراء... وكان يوصي الناس بأن يبنوا له ضريحا لتوَهُّمه أنه من الصالحين والشرفاء... لكن يبدو أن الناس لم يعودوا يولون لهذا الأمر كبير عنايتهم، فقد رموه في الجانب الهامشي من المقبرة مثل باقي العباد... وظل، بعد وفاته من أبطال السير والحكايات في المجامع والمقامات...

٢٤- مسيعيد الكوديار:

عدو كعبيه وصديق البيئة

ليس غريبًا أن يظهر بين الفينة والأخرى على أرض الولي الصالح مسعود بن الحسين نماذج من البشر يحسبهم الناس سُذّجا أو مريضين عقليًا أو مجانين فاقدين لعين الصواب أو بلهاء ذهب طاعون "الفقصة" بألبالهم (مقود العقل)... وما هم في الحقيقة إلا حكماء في نظر ما أتى به نيتشه وفلوبير وروسو... فغالبًا ما يعرفون ببعض السمات التي تكشف غريزة الطيوبة عند جنس الإنسان، بعضهم يعذب نفسه بطريقة مجوشية على شاكلة البوذيين، وبعضهم يحمل خصيصات الطبع الآدمي الرفيع، وإن رفض العيش على نمط البشر بشكله العادي؛ مما يستدعي استغراب الناس وحيرة (الحفظان) من أبناء وحفدة الولي والمتمسحين ببركاته. إنهم يعيشون في عالمهم الغامض، ولا يفتنهم المحيط؛ بما فيه من أشكال المتعة والفتن.

لا يعيرون اهتمامًا لاستفهامات من حولهم، كأنما لا يرون ولا يسمعون؛ صمٌّ بكمٌ فهم لا يقشعون... تماما، هذا نهج "مسيعيد" في الحياة، ينسج من غرابتها للناس حديث المساءات بمقهى "الأفراح" أو مقهى"الرياض" أو أي مقهى شعبي يحتشد بالقمارين والحشاشين وعاشقي لعبة الورق (الرونضة)، كما تسللت أخبار وطرائفه إلى الدواوير والقبائل المجاورة حتى أضحى نموذجًا متفردًا لمجانين دكالة وعبدا

أسطورة حماق زمانه، ورُبَّ أحد باغته الحكمة في غفلة؛ فصار لـدى العقلاء جديرًا بالتداول والشهرة، بالرغم من حداثة وفـوده علـى المنطقة.

"مسيعيد" هذا سيء الحال، رث الملابس، متسخ الثياب. يبدو كأنمـا دهن بالزيوت والشحوم، لكنه ذا سلوك حسن يكاد يرفع رأسه حياء، يتسول بأدب، ولا يحرج الناس، يشير بسبابته فقـط. مـن ملامـح الشخص يحدد رد فعله، فإما مستفيدًا أو منصرفًا دون انزعاج! ومن صفات تفرده أنه يحمل كيسًا يجمع فيه النفايات والأزبال الـتي تمـلأ الزوايا والأمكنة، فحيثما توجهت –على جنبات الضريح– تستقبلك رائحة تزكم الأنوف، وتضيق الخاطر؛ وتنفر السجية! والأغرب مـن هذا أن "مسيعيد" يبعدها عن محيط القرية ويرميها في المكان المخصص لها؛ في حين أن من يدعون لأنفسهم الصلاح وقوة البصيرة ورجاحـة العقل يلقون الأزبال حيثما اتفق؛ دون أن تنفعهم حكمتـهم في ردع هذا الانتقام من الطبيعة ومن جمالية المدينة وبهاء القرية. فمن هو العاقل ومن هو الأحمق؟ والأشد إحراجا أن "مسيعيد" يلتقط ما يرميه هؤلاء بفرح غامض مسفرًا عن ابتسامة مريرة يلفظها في وجوههم ساخرًا... أوَ لا تكون لهؤلاء العبرة في من يسمونه شفقة "الكوديـار" لـيغيروا سلوكياتهم هاته؟؟ سموه "الكوديار" ؛ لأنه يقطع عشرات الكيلومترات يوميًا برجلين حافيتين متنقلا بين الأسواق الأسبوعية متأبطًـا كيـسه البلاستيكي لا يؤنسه سوى دخان سجائره التي يلفها من الأعقـاب

المرمية في القمامة، لا يهمه متى يصل أو إلى أين، سريع المشي بشكل ملفت، طاحونة تسحق الطريق، تسير لتعد الزمن بخطى حثيثة ، كأنما تروم بلوغ غاياته القصوى. فما أصدق المثل السائر القاضي بأخذ الحكمة من المجانين.

٢٥- الطُّرْخُوي:

اصطنع الجنون ليتخلص من عشيقاته

"الطويهر" هكذا كان يسميه أهل البلدة تصغيرا لاسمه الأصلي "الطاهر"، وهذا الإنسان الهزيل النحيف مثل الظل، درويش بامتياز، لكنه سيد المسافات وصانع المهازل. "الطويهر" كلما هزمه الزمن، خلق مسرحية من مسرحياته الكوميدية الرائعة. إنه إنسان متخاذل، عاجز، خمول، لا يقدر على العمل، يحب أن يعيش على حساب الآخرين، ويكره التعب... لا يسلك سوى الدروب السهلة التي تؤدي إلى "الزرود"، لكنه غير ميال للعنف والبطش والسلب. لقد كان يستعمل الحيلة للاستحواذ على شيء ما يجلب به قوت يومه. لم يكن يهتم بما يقال عنه، ذكي للغاية، ولسوء الحظ كان يستعمل هذا الذكاء لمصالح وهمية ذاتية. كان متزوجًا وله أبناء ويقطن منزلاً حقيرًا بأحد الأرياف الدكالية العريقة، ولما تشتد به الفاقة يخترع حلا للخروج من أزمته. فكم من مرة تصنع العزوبية وذهب إلى الحلاق، ولبس الكوستيم العصري ووضع النظارات الواقية، ليظهر بمظهر أشبه ما يكون بمظهر أبطال هوليود (ستالوني، إلفيس...)، ثم يطارد نساء لا باس عليهن ماديًا، فيتزوج إحداهن؛ ليستولي على أموالها وثرواتها، ثم يتصنع الحمق والجنون، فيمزق ملابسه ويدمي أطرافه ويتشقلب في الطرقات والأزقة المحشوة بالناس ويشرب "الجينكا" ويسب الكل...

فيتحايل عليه الناس؛ ليضعوه في خلوة ضريح السيد مسعود بن الحسين، فلما تزوره الزوجة الأولى يقول لها "ماكاين باس... كابلي الدراري أنا بخير" وحين تزوره الزوجة الثانية يُكثر من حركاته البهلوانية ويزداد صياحه مثل عير جائع، ولا يهدأ روعه إلا حين تذهب...

هذه القصة تكررت مرارًا، حتى أن ناس الضريح كلما أتى "الطرخوي" مجنونًا يعلمون أنه صنع حكاية جديدة لجلب المال، وتزداد القصة كوميدية؛ عندما تيأس الزوجة وتغسل يديها منه وتصفو الحال إذ يلبس "الطرخويا" أحسن ما يملك، ويحمل حاكيا جديدًا، ثم يتجول بالقرية متصنعًا لغة أخرى غير لغته الأصلية، أقصد لغة فيها الفصحى المشوهة والفرنسية الملوثة، وفيها من السخرية باللغة الشيء الكثير... كل ذلك يحدث والناس يتفكهون ويقهقهون ويصفقون للطويهر الذي يتشجع أكثر لارتكاب حماقات أشد فظاعة...

"الطرخويا" كان ممثلاً مسرحيًا لم تُكتشفْ مواهبُه، فقد كان يمثل في مناسبات عيد الأضحى "عائشة الحمراء" ويلبس قناع "ليهودي" و"السبع بولبطاين" ويعزف على الكمان والناي ويرقص... عهدناه متعدد المواهب... شديد المكر والحيلة في انتزاع كل مكاسبه... وبالرغم من أنه كان ظريفا وفكاهيا، إلا أن الناس كانوا يعاملونه بحيطة وحذر خيفة السقوط في أشراكه الملتوية.

"الطرخويا" الآن، بدأ يشيخ، وبدأت عظامه تثقل، لذلك لم نعد نسمع من حكاياته شيئًا... ومثل هذا الشخص تحتاجه روتينية الزمن البدوي ليصنع الناس كوميديتهم هناك بشكل خاص... لكن للأسف، نـدُر مثل هؤلاء في القبيلة... فعاد الضجر والفتور ليطغى على المكان.

٢٦- ولـد الـشرقـاويـة:

عـيشـة نكد وجنـس حرام وبحث عـن شفاء مستحيل

ضخم البنية، ذو لحية كثة علق بها التراب والوسخ، فأصبح وجهه متشحِّما بملامح مقززة. يرتدي جلبابًا بنيًا يظهر عليه سرب القمل يرعى في واضحة النهار، وتملأ وجهه التجاعيد. ورغم استدارة محياه المتكور الضخم، ورغم أنفه المضغوط، فإن ابتسامة غادرة تشف عن بسمة المغمور بالفزع مثله مثل الآخرين أتى بحثا عن شفاء متوهم، لكنه مازال يخفق مثل طائر كسير بين براثن الحمق. حمقه الصامت الساخر من القيم، لا يعترف بالسلالات ولا المنابت. ولذلك فقد لطخ أمومته بالجنس الحرام... ربما ضبطه الكثيرون وهو يمارس عبثه الجنسي البهيمي على أمه العجوز التي لم تسمح لها كبدها وعواطفها بالتخلي عن فلذة كبد لم ترزق غيرها، فتحملت، مع الكبر، متاعب الإنفاق عليه وهو مخبول العقل لا يطمئن إلا للمهاوي، تمارس الشحاذة وتتسول لكي تجمع ثمن الكراء والمصاريف. وإذا لم يتيسر لها الأمر تبيت وإياه على هوامش الطرقات، وتحت شُرف المنازل، وحيثما اتفق، يأكل بشراهة البهائم ويتغوط بجانبه، عدو عتيد للأطفال. يضع بقربه حجارة ضخمة، وكلما مر طفل بجانبه، يهوي عليه بكل ما يملك من قوة، لكن الكبار كانوا ينتقمون منه، لأنه كان سريع التوتر، ثقيل الحركة، يتحرك ولد الشرقاوية مثل قنفذ ساخرًا بابتسامته الغادرة من

الأشياء والعالم. هادئًا في أغلب الأوقات، لكنه، من حين لحين، يثور، فيشتد بأسه ويبتدئ بأمه المسكينة التي تتحمل سخطه فيدمي وجهها المتغضن؛ الكثير التجاعيد، وتخاف أن يصيب أحدًا ببأسه الشديد؛ فتستعين برجال غلاظ شداد لتهدِّئ من روعه وجنونه... ولا يفلح القوم في ردع هيجانه إلا بعد ساعات... يحيط به الهراوات والحجارة وأسلحة بيضاء ليرهب بها المارين من الزقاق... ومع مرور الزمن أصبح ولد الشرقاوية أمثولة تضرب للبطش وللمحرم الجنسي... وليس غريبًا أن نجد بعض الذين يُكَنون باسمه في الدواوير يشمئزون ويثورون ضد كل من يردد اسمه أمامهم.

ولد الشرقاوية لا يزال يعاقر البرد والخلاء، ويعيش في العفونة والقذارة لا يؤنسه في وحدته سوى برازه وذنوبه وآثام أمه التي تشهد بعينين ذابلتين الذي يحصل ويحصل... مضحية بكل شيء من أجل أن ترى ابنها يومًا في عناق مع قلبه وعقله، ماثلاً بين يديها بكل حواسه ومشاعره.

٢٧- (شوطح):

عاش قويًا ومات ذليلاً

كان "شوطح" يرتدي "قشابته" ويخرج إلى الليل المخيف حينما تنام الشجرة والحجرة متأبطًا سيفه المملول باحثًا عن طرائد الليل. لم تكن قوته تشجعه على ممارسة نشاطاته الفلاحية والحرفية فحسب، بل كانت تحفزه على المغامرة والسرقة وجني آثام الليل الطويل. وبعد وفاته، ظل الناس يتواترون حكاياته ومغامراته المجنونة في ليل الاستعمار وزمن الحماية، لأنهم لم يكونوا يستطيعون تناقل أخباره في حياته مخافة أن يوجه إليهم بوصلته الجحيمية، فقد احتفظوا بها إلى ما بعد موته...

شوطح كانت له قوة بغل، يركض حافيًا دون أن يحس بالإعياء آو ألم الشوك والأحجار الناتئة. له سالف طويل... تصوروا رجلا له مثل هذا السالف في الثلاثينات من القرن الماضي! عضلاته مفتولة وقوية إلى درجة أنه يستطيع حمل ست "عبرات"[١٧] من القمح على رقبته ويسير بها مسافة طويلة فوق "الحد"[١٨] الحجري الضيق دون أن يسقط، حتى لا تترك أقدامه أثرا يحيل عليه في صباح اليوم التالي. يُحكى أنه كان إذا وطئ بقدميه الحافيتين شوك الصبار "الضربان" يكسره وهو يتضاحك بصوت عالٍ كأنما يلعب بقطع "الريشبوند"

---

[١٧]- العبرة آنية لقياس الحبوب.

[١٨]- الحد هو حاجز من الحجر يميز به البدو الحدود بين الضيعات والحقول.

وحدث أن صادف، ذات ليلة، من لياليه المجنونة، فكرة حمقاء دعته إلى سرقه إحدى عرصات المعمر المعروف في دكالة باسم "حمر الـرأس" فضبطه الحراس وكبلوه من رجليه وربطوه بقيود حديدية، ثم انصرفوا كي يستشيروا سيدهم "حمر الرأس" ضاقت الدنيا بـشوطح فـراح يتحسس في حلكة الليل طريق الخلاص. وكان من عادته أن يتـأبط سيفه الصارم البتار، ونسي الحراس أن يجردوه منه، فاستعمل سـرعة بديهته، التي لم تقده إلى خلاص سليم، فلم يكن له بد من بتر أحـد قدميه ليتخلص من القيد الحديدي المحكم الذي سيـسلمه إلى مـوت حقيقي حرقا بالنار. فلم يتردد شوطح أمام خوفه من شـبح المـوت القادم من كل الجهات، حيث بتر نصف قدمه الخلفي، ثم راح يعـدو في الحصائد والبراري والأحجار الناتئة والسهول الصلبة، والدم الغزير يتفصد من قدمه ويسقي الأرض، وهو يكابد الألم ويتحمله إلى غاية أن وصل إلى القبيلة، فلازم الفراش مدة دون أن يعرف النـاس سـبب ذلك...

سماه الناس بـ"شوطح" لأنه كان يرقص في الولائم والأعراس رقصة مجنونة (كان يلوز بمؤخرته كالمحصور بحصى التين الـشوكي) يـرقص مقرفصا ويبربر بشاربيه الكثين محدثًا رنينًا كصوت محرك الـشاحنة، والجمهور يرقص له ويشجعه ويهتفون به "شوطح ، شوطح خايـب اللعب. الناس ترقص وهو يندب، العرس واقف وهو دايـر شـطحة الكلب"... بطولات شوطح مازالت تحكيها الألسن في مجامع الدوار،

يتسلون بها مثل الأساطير القديمة... شوطح بعد أن بلغ أرذل العمر، اشتدت به آلام الشيخوخة وأصبح يعيش على الذكريات والأمجـــاد المنصرمة. وفي طريقه إلى السوق، فتك به الحر وانقطعت به السبل إلى الماء، فمات عطشًا، قبل أن يلحق حبْواً إلى شجرة تين ظلت إلى الآن تسمى باسمه... إن القوة جنونٌ لا يروَّض وتقود صاحبها، غالبـــاً، إلى متاهات الحمق، أجارنا الله وإياكم...

٢٨- حـــوق لـــوق

الشيطان الإيروتيكي... وقاهر الأطفال بالخوف

يلتصق هذا الاسم بالذاكرة كأنما سك بماء الذهب، لأنـــه يـــرتبط بالبدايات العميقة والطفولة المغتصبة. نشأنا في قرية قدر لها أن تكون ملاذا للمجانين وقبلة للمعتوهين وساحة لا تضج ســـوى بالـــصخب والرعب والفزع. كنا نمر بمحاذاة ضريح السيد مسعود بن الحـــسين العامر بهاته النماذج البشرية المستعدة لارتكاب حماقات هائلة، وفي أية لحظة، ومن أشد هذه الوجوه رهبة في تاريخ هؤلاء الذين عبروا جسر الجنون والأسْر بباحات الضريح، أتذكر، وبنفس درجة الرعب الآن، "حوّق لوّق" (الواقع أنني قربت كثيرًا من محاولة تذكر هذا الاســـم لكن شلة من مجايليه ألحوا علي في سرد حكايا جنونه (وما أكثرها!)، لأنه يمثل بحق جزءًا من عناصر كثيرة جرحـــت طفولتنـــا البائـــسة، وزعزعت كياننا الطفولي بسكاكين الترهيـــب والتخويـــف... هـــذا الوحش الآدمي الذي فتن جيلاً من الناس، آنذاك، وأقام من حـــولهم حومة من الفزع والهلع لم تنته إلا بغيابه. حوق لوق إنـــسان قـــصير القامة، بارز عظام الوجه، مشتت الملامح، ذو بنية قوية تشبه بنية ثور هائج. وهيهات، فحينما تشتد به لوثة الصرع، لم يكنْ يقـــوى علـــى كبح هيجانه أحد... كسَّر قيودَ الشرفاء والحفظان، وصعد ليلاً مـــن

الخلوة، وهرب. لا تَصدُّ جنونُه حتى الجرارات والجرافات... يهـرب الكل والويل لمن تخلف ووقع في قبضة حوَّقْ لوَّقْ...

ويبدو أن هذا الشخص العنيد قد أفسده مزاجه الـصعب الملـوث برواسب الحرمان الجنسي، فكانت عقدته جنسية محضة. إذْ كان دائما يتحدثُ مع نفسه بصوت عالٍ، عن الجنس. ولا يصدر عنـه سـوى كلام فاسد قبيح يمتح قاموسه من حقل الإيروتيكا. وغالبًا مـا كـان يتوقف بالقرب من حائط ويقوم بحركات جنسية مـثيرة للاشمئـزاز، متفننًا في دفع وتقويس وسطه مثلما لو كان يمارس الجنس واقفا مـع شبح... وحينما يناديه الأطفال (حوق لوق) [جاء هذا الاسم كتعبير عن هذه الحركات الجنسية] يطاردهم بسرعة جني قـاهر- ذكرنـا السمن والعسل- فيفر الأقوياء، وغالبًا ما يتخلـف الأصـغر سـنًا والضعفاء.

مرة؛ وقع في قبضته طفلٌ تعثر. فأخذه من جهازه التناسلي وشده بقوة ودلّاه في حفرة عميقة ملآنة بالماء العكر، والطفل يـصيح مـستنجدًا و"حوق لوق" يصرخ في وجهه بتشفٍّ قاسٍ: (والله لا طلقـت عمـر أمك وخاتجي ستة وستين دجيب!) وكانت حلقة من الناس يتـابعون المشهد في رعب وحذر صـائحين (واحـوق لـوق حـدا الحـيط كيتفلق...). فهم كانوا يعرفون أنها الطريقة الوحيدة لتخليص الطفل، يطلق "حوق لوق" (الزيت) [وكان هذا هو لقب الطفـل] ويطـارد الآخرين حنقًا، لكن الطفل كان قد أغمى عليه... وكثيرًا مـا كـان

يختطف سكينًا من بائع النقانق أو بائع حبة حلاوة والكاكاو، ويبدأ في العبث بها مثيرًا الذعر في صفوف التلاميذ الذين كانوا يقضون فترة الاستراحة في جنبات المؤسسة. حيث يدمي أصابعه وساعديه، مقهقهًا بصوت رعدي مجلجل في أصداء المكان... وتكاد الحركات الإيروتيكية التي يقوم بها بجانب الأسوار تكون اعتيادية لتتحول في الغالب إلى حركات ارتكاسية وهمية، حيث يتتبع "حوق لوق" مؤخرات النساء المفلطحات البارزات الأنوثة، ويستغل مسألة خوف الناس منه ومن بطشه، ليعري جهازه التناسلي ويستمني أمام الملأ، ومرارًا كان يتحلق حوله الناس وهو يمارس الجنس على الأتان دون أن يعبأ بالآخرين في مشهد هزلي باذخ... وبعد أن يفرغ من نزواته، يجمع سراويله (غالبًا ما تكون كثيرة) وينصرف، فيصيح الناس من هناك وهنا: (وا حوق لوق... وا حوق لوق مشى يتسوق!)، فيحمل الحجارة ويبدأ في رجم الناس بشكل عشوائي مثل شيطان مارد...

ترى هل يموت شخص بهذه الصفات، وبصفات نستحيي أن نذكرها؟ أبداً. إنه كيان خاص يستحق أن يعيش في الذاكرة على الأقل.

بلدة مشتعلة

"الأستاذ حماق لقاوه في خلوة سيدي مسعود يشيرو عليه أولاد القبة بالحجر" قال بيريك وهو يدق باب بيت الفقيه المختار بقوة..

وضع المختار الكأس مصدوما، ووقف يرتعد من وقع الخبر الذي فاجأه هذا الصباح. نظر في عيني بيريك، كانتا جمرتين متقدتين، بريقهما الحاد يشي بإحساس منهار بالعالم. أواه، قال المختار محتارًا وهو يتأمل حالة بيريك الذي لم يكن وجهه متفحمًا يومًا مثل الذي هو عليه الآن، ولم يكد يصل الباب حيث يقف الرجل حتى وجده اختفى تماما.

عاد المختار إلى مكانه، استلقى وراح يتأمل السقف. كيف لرجل وديع، وأستاذ رزين أن ينتهي بهذه الطريقة، وهو ما يزال بعد في بداية المشوار؟ كان شريط ذكرياته معه يعبر متثاقلاً، تاركًا في نفسه صدى حزينًا مؤثرًا. غير أن دقات مماثلة عادت لتقطع هذا الشريط. لقد عاد بيريك نفسه بعد أن غير ثيابه ووضع عمامته المشرفية، وتوضأ من جديد كي يؤدي الوقت حينما يدركه. قال له المختار: ادخل، فرد عليه بنبرة معاتبة، أين أدخل أولن تذهب لتزور صديقك في الخلوة؟ سكت المختار برهة قبل أن يرد:

– لا قدرة لي يا بيريك على أن أرى صديقًا في محنة، اذهب أنت، وأنا سأصلي من أجله من هنا، سيشفى بحول الله. نظر إليه بيريك متحسرًا، ثم استدار واختفى.

في الخارج كانت زوابع تدور. الدوار فتيل قابل للاشتعال في أية لحظة، وحدث منذ أن غاب الأستاذ عن الدوار، وعن صديقه المختار، ما يلي:

* اغتصب أحد الحمير بشكل فظيع أتانا بكرًا، بعد أن اغتنم فرصة غياب أهلها ليلاً ونوم صاحبه، فقطع الحبل، وهق ثم انطلق مثل السهم نحو إسطبلها المفتوح. وكانت مربوطة بحبل متين في وتد، فتهيأ له الجو لفعل فعلته الوحشية. ولما عاد صاحبها، وجدها في حالة يرثى لها، فأرغى وأزبد، وهاجم أهل الحمار. وقامت زوبعة من السب والشتم، كادت أن تنتهي بجريمة قتل حينما قال صاحب الحمارة المغتصبة: والله ما نخليها في هذاك الحمار عندك، طوالو رجليه ولا يهجم على حمارتي في خيمتي.

فرد الآخر هازئا:

– أنت سير الله يجيبك على خير، تمالك فايض بحال البحر، آش بغيتي تدير؟ مالو اغتصب ليك "كوادالوبي"!!!

فدخل الأول داره مهتاجًا، وخرج مهرولاً، بعد أن تسلح بهراوة، قاصدا صاحب الحمار. غير أن لطف الله تدخل وستر، حينما هب بيريك وصديقه العربي لفك النزاع، وحضرتني في هذه اللحظة المثلة التي تقول: "واحد يديرها وواحد يدكدم فيها"

* كما أن الفترة نفسها عرفت اتهام رجل لرجل آخر بكسر الحد بين ضيعته وضيعة جاره. فتلاسنا وتسابا، وحضر العادي والبادي من أجل فك الخصام ومنع الفتنة من التطور خاصة بعد تدخل النسوان في الموضوع!

* وجد أحد رجال القبيلة ابنته مختلية في جنان الكرمة بالوادي رفقة أحد شباب القبيلة، فثار من شدة الغيرة وهدد البنت بالذبح، ثم طرد الأم بسبة تسترها على فضيحة البنت وعلاقتها بالشاب. وانتشرت رائحة الفضيحة في البلدة، ولم يزح غمامة الصراع غير الزواج الذي تم قسرًا من أجل غسل العار.

* استيقظت القبيلة ذات صباح على إيقاع حفر قبر من الروضة المعلومة بسيدي عياد السبع من طرف ثلة من الفقية الدجالين بذريعة البحث عن كنز من اللويز الحر من عهد السعديين. مما أشعل فتيل الحزن في نفوس أهل القبيلة الذين مسوا في كيانهم نتيجة المس بمقابر أهلهم الراحلين، وهي مسألة مقدسة لدى أهل البدو.

* اجتمع كبار الجماعة بالقبيلة وقرروا جمع مساهمات نقدية عينية من أجل تنظيم حفل بسيدي عياد السبع احتفالا وتكريما لأمواتهم الذين مسهم السوء بسبب الحفر الذي طال المقبرة من طرف مجموعة من الدجالين المحتالين، وكذا طلبا لسنة ماطرة تنسيهم السنة الماحلة التي انصرمت مع كل ما سببته من دمار وخيبات في النفوس!

* اتهم رجل زوجته بالحمل سفاحًا من رجل آخر، فغضبت الزوجة وأحست بالظلم والغبن، فتناولت جرعات سامة من عقار بلدي يوضع لإسقاط الحمل، فتضررت بفعل ذلك كبدها وتدمرت. فتوفيت نتيجة لذلك بعد مدة قصيرة تاركة حسرة كبيرة في نفوس الناس الذين عرفوها بالالتزام والقوامة والسلوك الحسن.

في خلوة سيدي مسعود بن حسين انزوى الأستاذ مثل جني منـــهوك، غائر السحنات، قاتم اللون، عائم الرؤى ! ظل بيريك يحدق في وجهـــه من الفوهة الضيقة للخلوة التي تشبه كهفًا عميقًا، فوقه كرمة تـــين، لم يرفع رأسه في وجه زائره، رغم أن بيريك ناداه باسمه عدة مرات. كانت عيناه تحفران في الأرض الرطبة العفنة عن شيء ما. بعد أن اختلطـــت برائحة البراز القادمة من التحت.

– كيف يمكن لهذا الشاب الودود المثقف أن يتحول إلى معتوه يهوى العيش في هذا المكان القذر؟ اللعنة على الدنيا: من لم يخرج منها لم يسلم من عواقبها (!!...). ردد بيريك في قرارة نفسه مستاء.

بعد أن يئس الرجل من تكلم الأستاذ الجامعي المخبول، جمـــع وقفتـــه وقصد، وقصد أقرب حانوت، اشترى خبزة ووضع داخلها محتوى علبة طون من نوع" سيفيانا" وطلب من البقال قنينة مونـــادا كوكـــاكولا المحبوبة من طرف الأستاذ، ثم جلب علبة سجائر وضع الكل في كيس من البلاستيك الأسود ورماه، ذاهلا، داخل الفوهة، فهب المعتوه مـــن زاويته، وانقض على العلبة مثل نمر جائع. التهم ما بها دفعة واحدة دون أن يتنفس. كان بيريك يرى مرعوبا ويحوقل: "الله يـــا وليـــدي! مـــا تساهلش الله يديرها لمن كان سبب" أشعل المعتوه – هـــو في النهايـــة شخص آخر غير الأستاذ المعروف – سيجارة، ثم راح يمص الـــدخان بغرابة، وعندما انتهى أشعل من نارها أخرى. ورفع رأســـه باسمـــاً إلى

الزائر، وحرك رأسه، كأنما يشكره، ثم عاد إلى تأمله من جديد، وحديثه الصامت مع الأرض يحكي لها همومه وأشجانه!

عاد بيريك يجر خلفه رعبًا حقيقيًا، يرتجف من وقع ما رأى بأم عينيه ما حدث لشاب يمتلك مواصفات الأستاذ الرزين المتخلف، ويتأمل مقالب الدنيا التي تخدع الناس بسحرها وملاذها ونزواتها وملاهيها... كان كسير الروح، غابت عنه ملامح الدعابة المعروفة عنه. لكنه لما عاد إلى البلدة وجدها مشتعلة باللغط: سوق من النزاعات التي لا تنتهي حول الأرض والتوافه. وكان المؤذن ينادي للصلاة. ولا أحد يسمعه! كل في عالمه الخاص.

يجن الليل فترفل كطرينة في ظلام بهيم، قلما يستطيع أن يضيئه قمر وفي ليل الخوف والتوحش، تمارس الكائنات رغباتها تحت سقوف واطئة. لكن، في الخلوة رجل وحيد خارج رغباته، يؤدي ثمن من عبروا هذا المكان، ذنبه الوحيد أنه جاء من بعيد ينقب عن سيرة أهله الغائبين وعن تاريخ بلدة التهمها النسيان!.

فوضى

أشعل سي المختار المذياع ليستمع إلى أخبار السابعة. ما تزال رائحة السعيدية التي أضاءت البيت ليلتها، تملأ المكان. وما تزال الأشياء مبعثرة هنا وهناك. وقد يفطن أي شخص أن أنثى ما كانت تؤثث عالم الفقيه في الليل السالف. كانت أخبار القتل والحرب والخطف ترد عبر الجهاز الصغير مصحوبة بالأسى الذي ينم عن صوت المذيع: استشهاد خمسة فلسطينيين شبان برصاص المحتل الإسرائيلي الطائش أمام استنكار عربي مخجل، انفجار سيارة مفخخة بأحد الأسواق في بغداد يودي بحياة حوالي ثلاثين مدنيًا عراقيًا بينهم ستة أطفال وخمس نساء وثمان عجزة، تفجير إرهابيين انتحاريين لفندق ومطعم بالبيضاء يسفر عن حوالي أربعين قتيلاً، وعدد كبير من الجرحى. تنظيم حفل زفاف النجمين الهوليوديين برادبيت وأنجلينا جولي بشكل باذخ بكينيا هربًا من المتابعة الإعلامية، اغتيال بينازير بوتو أمام استياء عالمي مما قد يؤول إليه الوضع بباكستان عقب هذا الحدث المؤلم تنبؤ أحوال الطقس العالمي ومتغيرات الفلك أن الجهة الغربية لأوروبا وجزءًا من إفريقيا ربما يتعرض لتسونامي مرعب خلال الأشهر المقبلة، وقد أكدت جهات أكاديمية مسؤولة التكهن معتبرة إياه ضجة من أجل التخويف ونشر الهلع، وفعلا قد بدأت جحافل الناس يرحلون إلى الداخل بعيدًا عن الشواطئ احتمالا لأية عاصفة ممكنة. شباب أسبان يحتجون بطريقة

طريفة في الشارع العام لمدريد، حيث يستلقون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم أمام مكتب تنظيم الاستهلاك وحماية المواطن عقب الزيادة في أثمان بعض المواد الغذائية.

يصنع المختار برادًا من الشاي، بعد أن يفرغ عليه سطلاً من الماء ويصلي صلاة يسميها ركعات الاستغفار من ذنب الزنا. يفرغ كأسًا متمنيا لو كان برفقته صديقه الغامض الأستاذ المخبول الذي لم يعد قادرًا حتى على زيارته. أشعل شقفا من الكيف وراح يدخن بشراهة ويفكر مثل مَن حرقت خيمته البارحة. كان يفكر في مصير صديق، ومصير عباس وتقلبات الدهر، وعواقب الذنوب والمعاصي (هو أعرف بها لأنه يحفظها عن ظهر قلب في كتاب الله، ويرتلها يوميًا أمام الناس في الصلاة وفي المآتم وعلى القبور

لكن الماء يطهر الجسد والصلاة تطهر الروح. هكذا كان يفكر فقيه الدوار الذي يقضي الحاجات ويقصده الناس. لكنه يعلم أيضا أن هذا التطهر يشترط فيه الصدق وعدم العودة إلى الذنب نفسه! هو في كل مرة يعلن قطيعته مع الزنا، ويقسم ألا يعود، غير أنه بمجرد ما تدق السعدية أو مينة أو خدوج أو ربيعة الباب حتى يرتجف جسده. وتتدفق الدماء في الشرايين متجهة نحو وسطه. كان دائما يقول إن العلة توجد في الوسط، ويشير إلى أسفل البطن. ويضيف ساخرًا: "لولا الوسطين (البطن والفرج) ما امتلأت جهنم ببني البشر"، ويضحك بصوت عال، ثم ينهي هذا الحديث: "المهم أن يتمتع الإنسان في حياته قبل أن يحل

الممات فيندم عن كل دقيقة ضيعها في التفكير الخاوي في العواقب والحسابات الزائفة. الله يعرف شغله جيدًا، ولا دخل لنا نحن فيما سيكون، ولا ما سيحدث!"

أشعل المختار سبسيا من الكيف، وراح يمتص نشوان، مفكرًا في الآخرة وعذاب القبر والصراط الذي يشبه حد السيف والنار الأكول التي تعد للزناة في الدنيا. غير أنه سرعان ما يتخيل الجسد الأنثوي. يحضره بصورة جسد السعدية صاحبة الاثنين والعشرين عاما المتزوجة بالبقال ولد أحمد الأعرج الذي لا يعود إلا مرة في الأسبوع منهكًا. قالت له مرة: تصور يا مختار، أنا أنتظره أسبوعاً كاملاً مع الهياج والحرمان، فأتزين وأتعطر وأرتدي لباس النوم الفاتن، وأعرض عليه أنوثتي كي يهدئ نارها ويسد ما بي من عطش، فيأتي هذا الرجل متعبًا، منرفزا، أقبل عليه محفزة فينهرني قائلا: "اتركيني لحالي، أنت لا تحسين بما أقاسيه من إفلاس في التجارة وتعب وكد في الأسواق! أنت لا تحسنين سوى الزينة والأكل والنوم!"

ما الذي تريد أن يكون رد فعلي يا مختار؟؟ يقتلني الجوع، وتنهشني الرغبة فأقصدك، ولا أعلم ما الذي كنت أصنع بدونك...

كان المختار يستحضر ذلك متهيجًا، خاصة حينما ترتسم في مرايا عينيه تفاصيل جسدها الفاتن: العينان والبياض والردفان والساقان مرورًا بالصدر النافر والبطن المقبب من غير زيادة. والرائحة الساحرة التي تنسيه منذ عبورها العتبة القرآن والقيامة والعقاب والشيطان...

يتذكر أول مرة جاءته! كانت خجولة تلتف في قفطان بلدي مزوق، ولا تفارق عيناها الأرض. جاءته من أجل الأبناء: قالت له أريدك أن تكتب لي حجابا يطرد عني شبح العقم (فيما بعد ستسر إليه أنها لا تريد أبدًا الأولاد من رجل تافه مثل زوجها). كتب لها حجابًا، وختمه بأسماء وحروف، ولفه ثم طلب منها أن تنفل به ثلاثة أيام قبل قيام صلاة المغرب. غير أن ما أثاره، هو أنها قبل أن تغادر سألته مستغربة:

– أيمكن، يا سي الفقيه، أن يكون الرجل عقيمًا!؟

صدمتني، قال الفقيه محدثًا صديقه الأستاذ، جرأتها، وكان علي أن أجيبها بسؤال:

– هل تشكين في قدرة زوجك؟

صمتت برهة، فتدارك الفقيه:

– أقصد هل ينام معك؟

احمرت وجنتاها، وأحنت رأسها حياء.

فقال: أجيبيني لا حياء في دين، لا يكتمل العلاج إلا بالصراحة!

فحركت رأسها دلالة النفي، ثم غادرت. فتنبه الفقيه لأول مرة إلى جسدها الفاتن، خاصة على مستوى السرة والوركين والمؤخرة...آنذاك لسعه جسدها. وقرأ في شكواها دعوة إلى إطفاء ما يضطرم في جسدها من رغبات. ومنذئذ استشعر جسده بنارها، فلم يطفئه استغفار ولا رواه لعن للشيطان الرجيم...

وجد الشيطان المدخل المشْرع في نفس الفقيه، كيف لا وهو الخبير في ذلك؟ فهيأ له جسد السعدية في أبهى صورة ووضعها قبالة عينيه في اللحظات التي يستيقظ فيها ضميره ويبدأ في النشاط خاصة في وقت الدخول في الصلاة، فقدت السعدية، مع الوقت، حياءها وصوابها. ولم تجد غير طريق الفقيه كي تسد الفراغ الذي يتركه غياب زوجها وعدم تفهمه مشاعرها ورغباتها. لم تكتشف نفسها أنثى إلا مع الفقيه وبالرغم من كونه غريبًا عنها فقد اعتادت على جسده، بل حفظت رائحته عن ظهر قلب. وكم تمنت لو كانت زوجته في الحلال، وكم مرة تمنت لو استطاعت أن تنتفض ضد زوجها وقيم القبيلة، فتعلن عن عصيانها. فتطلق الزوج وترحل إلى الحضن الذي تجد فيه ذاتها! لكن هيهات، فمجتمع ذكوري مثل الذي تعيش فيه يرفض مثل هاته الأعمال، ويعتبرها قلة الحياء، وقد تموت إن هي جهرت بمثل هاته التفاهات!

كثير من النساء هنا يعشن على الجمر، وترى في وجوههن ندوبًا غائرة لم تستطع أن تبوح بها ألسنتهن. كثير منهن في مثل هذه القرى النائية يتزوجن قهرًا، ويمارس عليهن الجنس الشاذ قهرًا، ويستغللن حتى من طرف أقارب الزوج دون أن يستطعن الجهر بما يعانين. فـ"فيطونة" التي ضاجعها الفقيه مرة. حكت له أن زوجها يخرج مع الفجر إلى السوق؛ فيتسلل إلى فراشها أخوه الصغير ويضاجعها عنوة. وفي بعض الليالي التي يكون فيها الزوج غائبا ينام معها الأب دون تحرج مهددًا إياها بالطلاق إن هي تمنعت فتذعن لأنها تعرف أن زوجها سيصدق أباه ولن يصدقها

هي أبدًا ولو أقسمت له بحليب أمه الراحلة. ومن النساء البدويات من لم تشعرن بالرغبة الجنسية قط مع زوجها. الشيء الذي يجعلهن لا يعرفن الجنس إلا حركات بهلوانية يقوم بها الزوج لإيلامهن، وللحصول على أبناء. مثل ذلك حكته رويبيعة زوجة الفاطمي بائع الملح للفقيه عقب مضاجعته لها، حيث شعرت بإحساس غريب، وتمنت أن يكرر ذلك العمل، مرات عديدة، قبل أن تتسلل إلى بيتها، وقبل أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الصبح.

كان الفقيه يضحك وهو يتذكر كل هذه القصص، ويفخر بكونه رحمة من السماء نزلت على نساء القبيلة كي تنبههن إلى الأنوثة المنسية في أجسادهن الحلوة!!

نهاية غير متوقعة

استيقظ الأستاذ مفزوعًا على صوت أمه العجوز وهي تناديه للفطور.

– هيا قم يا ولدي جاء الصباح. لقد تأخرت، طلبتك ينتظرونك... قم إخوتك ينتظرونك على الفطور.

وجد عظامه مهروسة. كان كابوسًا فظيعًا. كل أطرافه مضغضغة. لن يذهب إلى العمل هذا الصباح. قام متلكئًا إلى الحمام. بول حار يتصبب من متانته مصحوبًا ببخار كثيف. رائحة فمه كريهة، ملوحة ودم متقيح. رأسه ثقيلة مثل قبة وأفكاره مهلوسة. فتح صنبور الماء الدافئ ووطن جسده تحت الماء المتصبب دون حماس ولا رغبة.

كان أخوه وأمه ينتظرانه باسمين. أمامهما قهوة بالحليب، كرواصة، زيت الزيتون، خبز وعسل وشاي... حاولا أن يقحماه في جوهما المرح، غير أنه كان مشغولا بكابوسه الليلي الفظيع، وبكطرينة، وبمحاضرة الطلبة التي تنتظره تحت عنوان "سيكولوجيا الجنون في الثقافة العربية الإسلامية وما يحيط به من طقوس" ابتسم أخيرًا، وبدأ يتناول قهوته الصباحية..

النهاية

لست أدري لماذا استيقظت في ذهني تلك الحكاية التي قصها علي والدي مثل الخرافة قبل عشرين سنة من وفاته، ولست أدري لماذا أصبحت الآن متيمًا بما يشبه حب الفضول لمعرفة تلك القرية الأسطورية التي كان يحكي لي عنها بحنين، كان يحكي وعيناه تكادان تفيضان بالدموع، وكنتُ أنا -آنذاك- لا أفهم معنى الحنين، ولا أستطيع قراءة ملامح والدي وهو يحكي، فقط كنتُ أظنه يريد تسليتي بتلك الحكايات المذهلة عن أناس عاشوا وماتوا، وعن قرية دمرت عن آخرها ولم يُترك منها سوى الأنقاض

تصميم الغلاف كريم آدم

رواية
رواية للنشر والتوزيع